

حسنة الأعمال

سحر ملص

دار البشير
للتشرو والتوزيع

مفرد الطبع مخزولة
الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٥/٨/٨٥٤)

رقم التصنيف : ق
المؤلف ومن هو في حكمه : سحر ملص
عنوان المصنف : مسكن الصلصال
رؤوس الموضوعات : ١- القصة العربية - مجموعات
٢-
رقم الإيداع : (١٩٩٥/٨/٨٥٤)
الملاحظات : عمان : دار البشير
* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution

Tel: (659891) / (659892)

Fax: (659893) / Tlx. (23706) Bashir

P.O.Box. (182077) / (183962)

Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

دار البشير

ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)

هاتف: (٦٥٩٨٩٢) / (٦٥٩٨٩١)

فاكس : (٦٥٩٨٩٣) تليكس (٢٣٧٠٨) بشير

مركز جوهرة القدس التجاري / المبدلي
عمان - الأردن

الإهداء

أمي..

إليك أيتها الشعلة المتألقة في عالم البرزخ
وإلى أرواح كل الذين دمرنا مساكنهم
الصلواتية.

سحر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العابث بالدمى

(١)

شكراً لك يا سيدي إذ بعثت السلحفاة من بياتها.....شكراً لك إذ
حركتها من صدفتها الباردة وبعثت فيها دفئاً واعدتها للحياة....
للكتابة.....بعثت في قلبي الميت حياة فقام من تابوته النرجسي ليكتب.

(٢)

إن كان لن يجمعنا بيت واحد أو سرير واحد سيجمعنا لحد أبدي يبقى
على مرّ الدهور، سأدخلك في لحد الكتابة حيث ستبقى هناك إلى الأبد
مدفوناً تكبلك كلماتي.... وتتلفع بكفن حاكته مشاعري وتتوسد
التراب..... إنساناً أصفر الوجه بارداً ليس في عينيك تعبير سوى الجمود،
وحولهما دوائر من القصص التي سطرتها يد الدهر.

(٣)

من أين أبدأ، من قصة أمة تقف خارج أسوار مملكته يكبلها الحب
ويحمي عليها بأسيخ الهيام ويذمي معصمها وقدميها قيد ثقيل تجلس خارج
مملكته بانتظار حكمه السامي فإما أن يصدر حكمه ويفك قيدها وتضم إلى
أشبائه، أو تطرد وتبقى القيود تفرح يديها.

ويجلس جلسته المعتادة يقهقه هنا وهناك لا بل يتلذذ ويضحك ملء
شذقيه إذ ينظر الحب يغشى عينيها وما بين الأيام والساعات يحلو له أن
يدعوها لقاعة محكمته ليحقق معها.

ثم يعاود أعماله المعتادة وجنونه التي لا حدود لها. ويتركها خارج
الأسوار نهياً للبرد والليل الموحش، ويُطل القمر دامعاً على أمة جللها السواد
ونامت خارج أسوار مملكته تنتظر القرار، قراره المعلن.

(٤)

وتبحر سفينتك عبر البحر وتبحر سفيتي حتى يلفح كل منهما الضباب
ويتوه كل ربان فينا ولا نجد خيط الصلة بيننا وأسائل نفسي عما تراها
اقترفته من ذنب حيالك؟ أراجع ذاتي ألف مرة ومرة ثم أقول: - لا بد أنك
وردة حُرمت من كل شذاها وغطاها الشوك فبات الكل ينفر منها....إني
أطلع إليك من طفلي الصغير... من كوته الطفولية فأراك كائناً بريئاً مثله،
ولعلها امرأة تلك التي شوهدت العالم وشوهتك صيرتك من عبقرى صغير
إلى إنسان حاقد مدمر.

(٥)

تبقى يا بحر شامخاً بغموضك وموجك الهادر..... تأتني إليّ أمواجك
زاحفة فأسألها وأسألك ولا أجد سوى صمت وشموخ.
أحدثك عن السرّ فيك وعن الخلود.... فتجيبني بهدوء إنك مجرد لجة
ماء وأعلم أنك تخفي في جنباتك الشيء الكثير.
أعلم أنك غادر.... أعلم أنك تجلس الآن بهدوء تحديق بي عينك الزقوان
وكأنك لا شيء... تهمس أمواجك بكل اللطف... تتساءل... تبحث عن
الشمس في قبة السماء ولكن اعلم أنك ابتلعت كثيراً من الضحايا وشتت
الملايين من الناس وبقيت العينان الزقوان تحديقان في قبة السماء العالية.
تجلس ضاحكاً... ليس لي أخطاء.... ضميري مستريح بينما أجدك قد
شتتت مئات الناس وبعثرت أشلاء ضحاياك هنا وهناك ثم استلقت
مستريحاً تنتظر التهام ضحية أخرى.

وأعلم عندما تتصاحب أمواجك وترتفع إلى عنان السماء ثم تلف في زوبعتها ضحية أخرى دون أن ترحم تبتلعها في أعماقك وتعود لسكونك الخبيث المزعوم.

كف يا بحر من الشموخ... كف عن العبث واللامسؤولية.

(٦)

ثلاثة قبلي حاولن دخول مملكتك ولكنك طردتهن ولم يدخلن معك وخرجن نائحات، أما أنا فكنت أقوى الثلاثة... أقسمت ألا أدعك تنجو أقسمت أن أدفك معي في نعش جميل لن تخرج منه أبداً...

ابتدأت الحكاية عندما قابلت الوجه الأصفر المضطرب والحديث الواضح.. بدوت لي شاباً ولكن عندما تحدثت عن الثلاثة ظهرت كهلاً... وتلبسني حمى الفضول في سبر أغوارك، واقتربت منك أعريك وأعري ذاتك... كنت واثقة أنني سأخرج منتصرة.

اقتربت منك محاولة سبر أعماقك... أعبت بعينيك حتى أتسلل إلى ما وراءها: وفجأة تسللت النار إلى روحي... فجأة وجدت ذاتي تكتوي بحمى سعيرك ولهبك وابتدأت لعنتك كلعنة توت عنخ آمون تلبسني.

رحلت الى البحر أنشد راحة وخبأتك معي حملتك إلى هناك طيفاً وضعتك بين ثنايا كتابي الصغير وفي الليل أدخلتك إلى عالمي... كنت أتساءل ترى هل سأسعد رجلاً في الأربعين؟ هل سأغسل جراحه؟

هل سأعطيهِ راحة؟ ورحل خيالي وراء البحار... تصورت نفسي وأولادك بانتظارك لنحمل عنك عبء أيام متعبة قاتلة.

تساءلت هل ستسرو هناك سفيتي الضالة؟ وزادني لوعة ما قرأته عن البحر من فكر برناردشو. كنت قوية على البحر مرحة... ظننت أنني قوية إذ ليس في العالم أقوى من اتحاد رجل وامرأة. ثم عدت إلى بيتي وأدخلتك الى

مخدعي....أدخلتك الى معبدي الذي لا يدخله أحد إلا إذا شرفته وصيرته
طيفاً وظلاً يدخل في دمي وخيالي إلى معبدي.

كنت أفكر فيك... أفكر في رجل غربته الوحده كما غربتني.

ألف صورة وصورة تخيلت... وألف حديث وحديث إليك
تحدثت.... ضحكت عيناى... ورقص قلبي.... أتراني وجدت ضالتي؟

هل أشعلت منارة لتهدى سفيني؟

هل سيرخي ربان حياتي اشرعته فقد وصل الميناء بسلام.... طلع
القمر... وأضاء بحر حياتي، وبت أشعر ظلمة البحر نوراً، وملحه عذباً،
رقصت طرباً.... وشربت خمرة النصر... ابتدأت سفيني تبجر صوت
منارتك حتى إذا اقتربت منها بل اقتربت منك ومددت يدي لتصدم بجدار
بارد رخامي الأعماق، راعني ما رأيت لقد نجحت في إجراء عملية لك
لطالما تمنيتها لذاتي.... نجحت في استئصال قلبك وعواطفك وبت انساناً
حجرياً لا تهزه العواصف...

وأدركت فداحة فعلتي... لم تكن أنت منارتي.... وبحث عن الضوء
الخافت فيك.... عله يهدي قليلاً سفيني بحثت عن القمر الذي أنس في
ظلمة البحر وحشتي.. ولكن لم يكن سوى انعكاس مصباح سفيني
عكسته الأمواج وضخمته، أما المنارة فلم تكن سوى صخرة كبيرة راسية
على البحر لا تزحزحها الامواج... وارتفع زئير البحر وعواء الريح وعاد
الموج يسخر من سفيني ويدفعها بين الأمواج المتلاطمة ووقفت صخرتك
تحقق بي في ظلام الليل البهيم.

(٧)

وتسافر يا سيدي بحثاً عن تلك الدمية التي شقيت بحثاً عنها، ولعلها
ليس لها وجود إلا في خيالك.

تعجبك واحدة، إنها تمثال للجمال والفتنة، شقراء باهتة عيناها زرقاوان
كماء البحر الصافي، تأخذها بين يديك وتلهو بها ولا تفكر أبداً في أية
نتيجة. وتصبح أبا لطفل ثم طفلة، آه ولكن هذه الدمية مملدة ولم تسأل عنها
عندما ابتعتها من سوق النحاسين لتضمها إلى مملكتك الصغيرة....

والثانية أنها جميلة تذهب إلى سوق الأغنام وتفحصها لاشك أنها جيدة
للأكل، تدخل مزاجك وعقلك تمتلك عليك كل حواسك فتبتاعها
والحصيلة طفل شبيء عابر في حياتك.... ماذا يضير؟ ثم تملها.

سته أشهر كافية لتلهو بأجمل دمية.. إنها ثاة دخلت مملكتك، وكيف
لشاة أن تنعم في ظل مملكة أكثر من ذلك.

وتبحث عن الثالثة دمية صامته تشتريها من سوق الدمى محنطة جميلة
وتدخل الى القصر فلا تنعم بين عبيدك وأشيائك إلا لبضعة أشهر.. دمية
تُعصي أمرك... دمية كاذبة... ويأتيك طفل صغير ولكنه شيء عابر ستدفع
له ثمن عبوديته وتمل الدمية الثالثة فتتركها أوقل تحطمها وترمي بها مع
مهملات العالم القذرة، وتندب حظك العاثر الذي لم يرسل لك إلا دمية
تملها.

تشقى بحثاً عن الدمية التي في مخيلتك تلك الدمية التي أشقتك في
الطفولة، كنت تراها في الحلم وكانت تعذبك، ثم تصحو من نومك
محاولاً اللحاق بها.... لا بل تركض من سريرك الصغير وتذهب صوب
الباب لتأتي أمك لترى ماذا أصاب الصغير، فتضمك إلى صدرها وتجدك
باكياً. العينان الزرقاوان مغرورقتان بالدموع وخصلات الشعر الشقراء
تغطي الجبين... تحدثها بصوت خافت مضطرب وتدفن رأسك في صدرها
لقد ذهبت... ذهبت الدمية.

تبدأ تواسيك: سأشتري لك أجمل دمية في العالم.. وبالفعل تبتاع لك
واحدة تعبت بها وفي آخر النهار تحطمها، حتى إذا جن الليل أتتك ديمتك

اللعوب تقهقه أمامك. تحاول الإمساك بها ولكنها تهرب منك ويشقك الحلم الطفولي... تكسر كل دمي الطفولة وتبقى الدمية الصغيرة تزورك في النوم... تكبر... ويكبر الحلم وتقاطعك الدمية. تبدأ بالبحث في الدمى الآدمية حتى إذا أتتك إحدى الجوارى، تجلس لتقهقه أمامها ملء شديك عابثاً بها وبعواطفها تماماً كما عبثت الدمية الصغيرة بك في طفولتك.

تقضي الليل وحيداً، ويزحف الزمن بغباره الثقيلة على جسدك وعقلك... تكبلك الشيخوخة وتقيّدك الوحدة وترحف إليك أشباح ضحاياك... تنادي في الليل ولكن ما من مجيب... تسأل عن رفاق الطفولة أولئك الذين حطمت دماك أمامهم وبمساعدهم ولكن رفاقك مضوا الى سبيلهم كل منهم قد جلس في عشه مع آدمية وأنت ما زلت تنجرح كأس المرارة. وتهذي... تهذي يا سيدي تصييك حمى الهذيان... تحلم بكوايس وأشباح ثم يأتيك شبح أربعة أولاد يحومون حول السرير تمد يدك... ليمسكوا بها ولكنهم يلقون اليد التي تركتهم في الطفولة هارين الى عالمهم تاركينك وحيداً تعاني من الحمى والسهر، وتستسلم للبكاء بكاء ممرض كما كنت تبكي في الطفولة... وتبحث عن صدر أمك لتدفن رأسك فيه علّها تخلصك من كل الكوايس.. وتتمنى أن تخلص من هذا الحلم والكابوس المزعج ولكن هيهات.

إنها الحقيقة يا سيدي ليس هو بحلم كما في أحلام الطفولة. بل هو واقع وقدرك الذي نسجته بيديك... لقد ذهبت تلك الأم حسرة على صغيرها الضائع.

حتى إذا تنفس الصبح أتتك الجارية... أتتك تلك التي منحتك حباً حقيقياً لتجدك في عذابك المرير وقد تخلى عنك الأهل والحلان، تستأذن في الدخول لتجدك معذباً، وتأخذ رأسك وتدفته في صدرها الأسود: تمسك بها... تتشبث بثوبها... أتراها أمك...؟! كلا.. أتراها دمية؟؟ كلا..

إنها إنسان حقيقي مغمم بالحب والحنان، قلبها نابض ييث حباً ودفناً مع
تسلل خيوط النهار الجديد.

(٨)

ابحث عنك ما بين حبات المطر المتكاثفة أبحث عن وجهك الضائع في
سواد الليل المدلهم، وأتستر بجناح الليل وآتيك رغم عويل الرياح وحببات
المطر... آتى إلى عشك فأجذك نائماً وغائصاً في بحر متاهات السفر...
يتعبك العمل، فلا تجد صدراً تستريح إليه، بل تعانق أحلامك وأشباحك..
أطرق نافذتك فلا تسمعني وأكرر الطرق.... ثم أرسل روحي تتسلل عبر
نافذتك الموصدة، لتصلي من أجلك وتطوف حول جسدك المتعب وشعرك
الأشقر.... تظل تحرسك تتأمل في وجهك... أفكر في أن أرخي رأسي
على صدرك أوسده هناك علة يستريح كطفل صغير أضناه التعب، والسهر،
وطال بحثه عن أمه الضائعة حتى إذا وجدها تشبث بها ودفن رأسه في
صدرها.

وأقف متوسلة متبتلة أن تسمح لي بفسحة من السرير أوسد جسدي
وروحي الشقية فالبرد قاتل. وبرد الوحدة مدمر... دعني هناك أستريح...
دع قلبي الهائم يأوي الى عش بحثاً عن الدفء والحنان.

ويكي قلبي الصغير... ييكي مسترحماً. عذراً يا سيدي فقد بت مشتتة
وأنت أيقظت قلبي من سباته.... أيقظته في ظلمة الليل ثم تركته بين
الأشباح... ما زلت جاهلة لماذا أيقظت قلبي.... لماذا لم تدعه غافياً تحت
غصن شجرة النسيان..

أحاول الهرب منك الى الناس والمجمعات، ولكن في كل مكان ترتسم
لي ويطل وجهك من بين زحام السيارات وحببات المطر... وتمرض روحي،
أصاب بسقم وليس في حياتي سقم أمض من سقم الحب، يقدم لي كأس
في ظمأي الشديد ويقربها الى شفتي فأجد أنها ليست الماء العذب فحسب

بل البلمس الشافي لروحي. وعندما أبدأ بارتشاف أول قطرة يسحب من يدي الكأس ويتركني ظمأى بين رمال الصحراء.

ولا أسمع سوى صدى ضحكائك تفهقه وسط جدران حياتي تكبر أكثر وأكثر.

غداً ستترك عمان الباردة الى ألمانيا حيث الثلوج لتبحث عن خلية هناك وستجد واحدة بل أكثر. تجد دمية تمنحك الجنس خالياً من الحب فتشبع نهماك، تبلل شفاهك بالماء دون أن تطفىء ظمأك.. ليس الماء الذي شربت سوى كأس مليء بالشراب وليس فيه من الماء العذب شيء؟
وتتراكض من حضن خلية الى أخرى كلهن يعطينك ما تريد لأنك تدفع ما يردن.

شهر سيمضي.... وعمان موحشة، والبرد قاتل، وروحي هائمة بين عشك وكهفي المتلاشي، ولا أملك سوى دمعة تفيض بكل ما في قلبي من لواعج ومشاعر أسكبها على وجهك الغارق في السبات.

(٩)

وفي الليل حنت على روعي العليلة أطيافه وأتنتي زائرة... تكحل عيناى بمرآها، وتمنيت لو أن الليل يطول أجيالاً لأبقى أسيرة طيفه... وعند الصباح كانت جراحي النازفة تمن لا يداويها سوى حنو بنفسجي لصديقتي البنفسجة التي نامت تحتضن قطرات الندى حتى إذا أطلت الشمس متهادية أوسعتها قبلاً. وتساءلت أيعقل أن يطل الربيع علي وبنفسجة عمري زاوية سقيمة؟ ألن ترتشف من قطرات الحب فيرويه... أليس الماء والحب حقاً لكل المخلوقات... فلماذا حرمت بنفسجة ذاتي من حقها الطبيعي؟

(١٠)

افتح نوافذك يا سيدي وأخرج من قوقعتك وأبحث عن الحب

البنفسجي، كفاك تقبع خلف الستائر الرمادية الثقيلة. كفاك تعيش بين
أوهامك وكوايسك..

دعني أُمسد قلبك بالحب البنفسجي... دعني أحيطك بشرنقة من الحب
الشفاف لا تخرج منها أبداً إنني أحبك.. أحب طيفك أحب صوتك وحتى
عبثك وجنونياتك.

(١١)

لن تبقى سماعه الهاتف باردة بلا حرارة.. ولن يبقى السرير بارداً برودة
ثلجية، كلا فأخر نهار من الشهر يلوح بالنزاع، ومعنى ذلك أنه انقضى
شهر يا سيدي ويجب أن تؤوب الى فراشك الى بيتك الى الأباجورات
المسدلة والسيارة الواقفة أمام الباب بيضاء باهتة والكلب المنقلب رأساً على
عقب داخلها...

سترجع من هناك ثملاً من الجنس والنساء... لا بل أجد في عينيك شوقاً
وجوعاً الى الوحدة الى التوسد في السرير ولكنه بارد جداً...

شهر مضى دون أن يضم بين طياته جسداً بشرياً.. تدخل الغرفة وأنت
تراجع رحلتك وأيامك الخالية ما زالت عينا (ماري ماثلتين أمامك بزرتكما
المميزة، وشعرها المنسدل على كتفيها... وجسد سوزي الأبيض الطري
ودلالها وغنجها...

تمطى وأنت ترتدي سترتك الباردة وتدس جسداً تحت الغطاء،
ويأخذ شريط الذكريات يمر سريعاً.. تمتد يدك تحت الوسادة عليها تصطدم
بجسد أنثوي عار ترتشفه كفنجان قهوة عربية فيخفف من تخمك
الجنسية.

وتعبث يدك هنا وهناك ولكنها تصطدم بجسم صغير بارد... تتحسس
بتوجس. ما هذا؟ شيء بارد صامت... تحديق إليه إنه أملس لزج... تنظر
اليه عبر الضوء الخافت فلا ترى سوى دائرتين سوداوين ترحلان بك بعيداً

الى حيث ثلاثة أشهر مضت يوم دخلت مستنقع الحشرات ناظراً وباحثاً...
يومها تجرأت إحدى المخلوقات التعيسة وقضت أصابعك لسعتها بشدة...
ما هذه الوقاحة؟ حشرة صغيرة تفعل بك هذا؟ يا لها من مخلوقة تعيسة
وأقسمت على الانتقام بأن تسحقها، ثم أرسلت من يطلبها الى مائدتك
الكبيرة... أجلستها هناك على شرشف الطاولة الأبيض... جلست تتناول
طعامك بأناقة... عالم الحشرات يا سيدي لا يعرف للشوكة والسكين معنى
بل يقتات على الفتات والقاذورات المتناثرة في الطرقات، حلاً لك أن تمد
شوكتك، بقرف بالغ ورحم تقلب الحشرة تعبت بها، كلما أنهضتها
أوقعتها مرة أخرى.

أعبث... أعبث يا سيدي!! ما هي إلا مجرد حشرة تافهة ترى الحشرات
تفكر؟ كلا لا يعقل ذلك فالحشرات ليس لها عقول أو عواطف.

أليس هذا ما علموك إياه على مدار سنوات... أي عالم أدعى أن
الحشرات تفكر؟ كلا... أبصق عليها مزقها... انزع يداً أو رجلاً إنها حشرة
تافهة قرفت منها وأثارت اشمئزازك... تركتها على المائدة وسرت بقرف
بالغ.

وفي إحدى الأمسيات الباردة فتحت الباب لتجد تلك الحشرة قابعة
هناك أمام الباب جاءت لتثار لكرامتها.. نكتة سخيفة... هل لهذه الأوساخ
والأشياء كرامة؟ أي حشرة وقحة تلك وألقيت بها بطرف حذائك الأبيض
الملمع.

ولكنها عادت لتبحث وتبحث أتت الى البيت البارد، دخلته ومكثت
هناك شهراً في الفراش منتظرة. يخطر ببالك أن تسحقها بين يديك ولكن
قرفاً يصيبك... ستقتلها بمبيد حشري فموت كهذا أكثر اناقة وإن كانت لا
تستحقه ولكن حفاظاً على مشاعرك المهذبة ولا يجوز لسيد مثلك أن يقتل
دون تهذيب. الليلة يا سيدي تصفية حساب.

(١٢)

ألو... ألو... يردد الطرف الآخر تصمت كلماتي... تتلململ في بحار أعماقي... تتحرك أوتار حنجرتي ولكن ريقتي يجف وتتجمد الكلمات على شففتي... كلا لن أجيب ولن أتحدث سأدع كلماتي مخنوقة الى الأبد... لماذا أوقظها؟ لماذا أوقظ من مات منذ أشهر وأجد ذاتي عابثة... دعيه يركض.... دعيه يرفع السماعة يتحدث... ينادي...

ألم يجبرني أن أجهز نعشاً جميلاً وسدت فيه مشاعري؟ ألم يجلس قبالي ويتركني أحرق عواطفي ثم أدفن رمادها في ذلك التابوت الخملي؟ ألم أقسم أن أترك كل المهن وأمتهن مهنة الخانوتي لأصنع توابيت مزينة تليق بأصحابها ثم أدخل رأسي في كل تابوت وأخفي كلماتي بين زواياه لتنطلق بعد أن يغلق النعش على الميت!!

(١٣)

يئست من صوتك الميت... معقد أنت... تجلس وسط الغرف وقت الأصيل... تنحر ذاتك.. صدقني.. أنا لا أفكر فيك لا سلباً ولا إيجاباً ولن تستحق أن تقرأ كلماتي... تمنيت للحظة واحدة أن أسمع في صوتك صوت حياة أو صوت دافيء... ولكنه بارد... وبارد جداً.

بالأمس شاهدت شخصية ميتة وكم من النفوس نراها بلا حياة تنبعث فيها. صدقني أنني أتساءل باستمرار لا يمكن أن يولد حي من ميت إلا فيك فقط فقد ولدت حياة في قلبي من إنسان ميت حتى أن لسانك لا يقوى على حمل كلماتك.

قالوا لي أنك معقد.. ولكني لا أريد تثبيت ذلك، لأنني لو، فعلت لا اعتبرت نفسي امرأة تحاول تبرير فشلها. ولكني حقاً مصابة بامثنزاز لا حدود له. ترى منذ متى مت. لا أعلم؟ حقاً لا تقاس الحياة بالأيام التي

نعيشها فأنت تعيش بقايا أيام لك... حاقدا أنت ومسكين حتى صوتك
كرهته... كلا لم أكرهه ولكني اشمازرت منه.

(١٤)

أسفت لك يا سيدي حين أدركت أنك ميت منذ أمد بعيد... كنت
أعتقد أنك حي وأن كل ما يجري من طقوس إنما هي لإنسان آخر... ماتت
نفسك منذ اغتلت فيها كل الحب، والعطر وبقيت تمثالاً أبيض كالشمع لا
حياة فيه.

ميت أنت يا يحيى برغم وجودك الجسدي في كل مكان... ميت برغم
حياتك المزعومة... ميت برغم اسمك وما يحمله من معنى الحياة.

ميت منذ زمن سحيق منذ قتلت فيك امرأة كل العواطف، أجمتها
وأسرجتها بسرج حديدي منذ أودعتها في صندوق النسيان وألقت بها الى
قاع الظلمات.

والآن أنا أزور قبرك أتلو لك بعض الآيات وبعض الدعوات لعلها تخفف
عنك كما ندعو للمقبور حتى يخفف عنه العذاب.

آياتي بلسم أرددها على جسدك المدفون. ألم تدع أن حاجتك جسدية!
إذن ميت أنت يا يحيى وما بقي إن هو إلا جسد لا يسمن ولا يغني من
جوع. ولعلي أبحث في طوافي عن روحك المتحررة والهاربة منك فألقي
القبض عليها حتى أعلمها العشق والحب، وأبقي لك في الأرض جسدك
الشمعي تفخر به أمام المجتمعات وأصحاب الألقاب ورؤوس الأموال حتى
تجد دمية ترافقك الى الصالونات المخملية دمية تليق بالجسد الشمعي الأبيض.

(١٥)

مررت اليوم قرب معبدك... وقفت قليلاً وفتحت باب القفص لقلبي
الخبوس... توقعت منه أن يرفرف ويرقص طرباً في القفص.. لا بل يطير منه

ويدخل معبدك.. ولكن يا لخبية أمني فقد بقي الطائر الأبيض نائماً وكأنه ميت مسجى... حاولت أن أشدو له عليه يفيق ويتذكر أسرته، ولكن صوتي لم ينطلق والطائر لم يتحرك، ولم أجد وسيلة سوى تحريك باب القفص لعل صوت الباب يوقظه ولك الطائر بقي في سباته وأدركت آنذاك أن عليّ أن أوصد باب القفص وأبقي الطائر في سباته.

(١٦)

ترددت في أن أكتب لك... ترددت في أن أنبش قبوري وأخرج ما دفن فيه... ماذا يقول الناس عن نائحة تجلس لتنبش القبور وتخرج ما بداخلها؟؟ ولكن الميت كان حياً وملاً الدنيا صياحاً. أو تصدق أنني أقدم لك ذبالة حياتي... أياماً عشتها تراقص فيها الحب واتقد واحمر خدي من حرارته وتململت القطرات في جسدي وكبر الحب... بركان من الحمم في داخلي ظل يشتعل أكثر وأكثر حتى انفجر... تصاعد الى السماء.. ألقى حمماً ألقى ناراً ثم حمد... صار رماداً.

أسائل ذاتي لماذا سافرت في هذه المتاهة ما الذي جعلني أقع فريسة حمى لحياتك لا شك أنني لو حاكمتك عقلاً لياً لما وجدت فيك شيئاً. ولو أعطيتك كلماتي لأخذتها بإهمال وألقيت بها في إحدى الأماكن المظلمة... شيء مهمل هناك.

أفكر فيك كيف ستضحك... كيف ستشمت بل كيف ستسخر مني ومنها.

وأذكر لحظة أجلسنتني على كرسي الاعتراف. وكان أول تهمة وجهتها الي وحقت بها معي... وجهت التهمة الي قلبي وسألته هل أجرم ونبض؟ وعرفت من سؤالك وسخريتك كأنك تريد جمع كل قلوب الأحياء لتحرقها معاً ناراً لقلبك الذي أحب مرة ثم أحترق ومات هناك متناثراً على الرماد.

ما زلت أذكر أول تهمة وجهتها الي ولا ألومك فهذه أول تهمة توجه
للأنثى وهي تتجه الى قاعة محكمة الزواج العربية.

ما يحيرني الآن أن ماذا سيقول المحقق التالي الذي سيأتي بعدك، إن
قدّمت له أوراق إدانتني وأعلمته أن قلبي عاصٍ ومذنب؟ هرب مني وتمرد
علي وأحب رغماً عني وحلق في سماء الأحلام وتلاًلاً أكثر وأكثر تلاًلاً في
ظلمة حالكة في سواد مقيت ثم تهاوى كنجم وانطفأ.

(١٧)

أبحر في صوتك... في بحر النسيان... أصادف وجهاً مقتولاً...
أصادف رأساً مقطوعاً أبحر وسط بحر ضبابي وسفينة كلها آلام... أبحر
عبر الماضي. لك ألف شخصية وشخصية... شخصية المجنون وشخصية
التائه... وشخصية المعقد... لا بل أنت الإنسان الحاقد المدمر... الإنسان
القوي والإنسان الضعيف. تجرني خلفك الى سراديب، وكهوف مظلمة،
الى منزلقات رطبة... حتى إذا قطعت شوطاً وغرقت في الظلام زلزلت
تحت قدمي أرضك.

وأبحث في الجثث العفنة أبحث في الجثث المقتولة عن بقاياك.. لعل بها
حساً ولعل بها روحاً.. أبحث في الجثث المشوهة.

أستخرج من الأولى إنسانك المعذب... ومن الثانية إنسانك
المصلوب... ومن الثالثة إنسانك الحاقد... والرابعة المدمر... والخامسة
المشوه أسحبها من بقايا الجثث الميتة وأبحث عن جسد يتسع لها.. لكل هذه
لنزوات التي عاشت وعششت فيك. ولا أجد جثة تتسع لها بل إن الجثث
تهرب منك خشية أن يتلبسها إنسانك... خشية أن تتغلغل إليها صفرة
وجهلك... صوتك الميت النازف ببطء.

تهرب الجثث وتبقى أشباحك العفنة معي على الأرض المزلزلة تتصارع
أشباحك... تدور حولي تخنقني كابوس يجثم على صدري.

تجرني أشباحك الى الكهوف المظلمة أكثر.. أصادف عناكب مشنوقة
في خيوطها وأصادف مقللاً مقلوعة من محاجرها وفي إحدى الزوايا أجد
ذاتي مصلوبة هناك.

(١٨)

أرثي لك يا يحيى...

كم يشوهك خيالي مع أنني تركتك في ساحات الزمان وانسلخت
عنك.. إلا أنك ما زلت تأتيني في النوم زائراً...
وفي كل زيارتك أجدك شخصاً مشوهاً. للحظات ترعبي وللحظات
تستدر شفقتي... ولكن دوماً أستيقظ متسائلة؟ لماذا تأتيني صورتك
هكذا..

قبل أيام استيقظت مذعورة بعد أن حملني الحلم الى حيث الأحقك..
تصعد السلالم وكأنك في غيبوبة فكرية ليست معي، أحاول كثيراً أن أقدم
لك أوراقى.. كلماتي ولكنك تبعد وأشهد صديقك ليخبرني أنك معقد
ومريض نفسياً.

والليلة أجد ذاتي أراك أضعف مما رأيتك في المرة السابقة مشلول الساقين
ضعيف البنية... أقرب منك فتحقق في مشاعري. أعترف بحبي لك
فتطرب وتطلب مني إعادة ذلك... ولكنك تبقى مشلولاً تبقى مشلول
الساقين...

والآن سأرحل يا يحيى... سأرحل الى تابوت آخر... لن أنقلك معي،
ولن أنقل جسدك وكيانك الى التابوت الجديد الذي سترحل إليه كلماتي...
سأبقى هنا وأقفل عليك... أنت من الزمن الغابر، سأبني سداً منيعاً من
الحديد...

لا تلحق بي يا يحيى... لا تترك روحك المعذبة الميتة تلحق بي
وتعشقني.. لا تنسج خيوطك حولي، أنت هنا ميت إلى الأبد.

* هذه أول قصة كتبت بشكل فعلي وقد نالت جائزة القصة القصيرة في
رابطه الكتاب للأدباء الشباب عام ١٩٨٧ .



جـروة

بعد قليل ستغلق المدينة أبوابها أمام القادمين والغرباء.. ثم سيطفئ قنديل الساحة الرئيسية... معنى ذلك أنه لو أتى قادم غريب لتاه في الطرقات المتعرجة، وسيسرع الرجال الى منازلهم حيث الأطفال المنتظرين خلف الأبواب والزوجات المتلهفات... وبعد ساعة أو أقل ستطفيء أمي قنديلا وتترك الأدم والرغيف بانتظاري.. ثم تسحب مئزرها على رأسها وتغفو تحت اللحاف... تتنفس بعمق.. والمائدة التي أعدت لي عاث بها قط هرم...، في السماء دوائر غير مكتملة كرسم صبي... إنه القمر لكنه أصفر اللون هذه الليلة.. وهالة ضبابية تحيط به، كأن الغيم يمر للحظات يلعق نصفه ويمضي...

على الجانب الآخر تقبع صفصافتان يجلس بينهما قط بانتظار بقايا رؤوس الدجاج المذبوح يُلقى إليه.. ومقابل ذلك تماماً أفاص الدجاج المضاءة بقنديل أصفر يتدلى أمام الحافة الممتدة لكان بائع الدجاج... وبين الحين والآخر يسمع رفيف دجاجة فزعة وقد امتدت إليها يد بائع الدجاج مثل قدر لا يخطئها يقودها الى الموت حيث تذبح، وفي لحظات تكون بيد زوجته التي تقف خلف الحائط، تغطس الدجاجة في الماء الساخن وتديرها على آلة التنف لتخرجها جثة عارية ساخنة الجلد...

بحذرٍ تدرك الدجاجات أن خمس دقائق لا أكثر هي ما يفصل بين موت الواحدة والأخرى ويحدجن أعين القطط بغيظ كبير، إذ بعد لحظات ستكون رؤوسها بين فكيه... ثمة غراب قد ضل طريقه إلى البيت لينعق وهو يطوف في دوائره الليلية على أشلاء المكان الممتدة تحت ضوء القمر

الخافت... إنه يذكرني بجروء... وبكل ما جرى.. هذا الغراب الذي راح يجمع كل هذه الوجوه الكثيرة في ليلة من ليالي ادغار بو.. جروء ما زالت تهوي في أعماق البئر ولم تستقر.. الخفافيش التي طفرت في وجهي ما زالت تطاردني حتى بعد جنوحى للمغيب.. ما زلت أسمع صوت الغراب الذي كان يرافقها... وأشم رائحة الحنظل المتكور على رمالها الصفراء.. قطعت دراستي في الولايات المتحدة وذهبت الى مصر إلا أن الصحراء كانت نهاية رحلتي حيث التحقت بالجيش!

دخلت الى السرية للنوم كانت الخيمة خاوية.. إذ أن زميلي في إجازة.. مكثت وحدي... سحبت البطانية السوداء من على السرير.. اطفأت الضوء وألقيت جسدي المتعب.. وضعت رأسي على الوسادة... سمعت مواء خافتاً... أصغيت، لا شك أنه شبح جروء الذي يطاردني... غطيت رأسي بالبطانية اشد صوت المواء... عرفت أنني دخلت في نوبة الكوابيس.. ضغطت على رأسي بكلتا يدي.. ازداد صوت المواء لم أستطع كبت بكائي.. انطلقت نوبة مواء حادة يتخللها مواءات ضعيفة.. مو..مو..، تذكرت المرأة المصرية التي سافرت إليها بعد موت جروء... كانت تريدني بكل قوتها وكنت أريد أن أنسى... كان جسدها سكني وراحتي!

إلا أنها كانت تعذبني بالقطط... وكنت أرى في وجه كل قطة عينا جروء.. وجسدها الهاوي الى أعماق البئر... وعندما كنت أذهب لبيت المرأة المصرية.. أجد قطة صغيرة تموء تكون قد دستها في فراشي.. فأترك السرير وألقي بنفسي في إحدى زوايا بيتها باكياً... وامتلاً جسدي بالحلب والبثور وفي أحد الأيام عندما تسللت من بيتها شاهدت سلحفاة مهشمة الظهر وقد سالت دماؤها بعد أن تحطمت القوقعة.. (ستقصر ظهري يا بني من جراء حبك لجروء.. قالت أُمي) ولكنني أحبها برغم العداوة التي بين أبي وأبيها.. ورغم كل الثارات المهترئة بين العائلتين... وأقسم أبوها على مسمعي أن يقتلها ولا يزوجني إياها... قلت ذلك للمرأة المصرية ولم تقل شيئاً سوى أنها أتت بقطة صغيرة في الصباح تعلق قدمي...

لو كان معي زميلي الخفف من هذه الكوابيس.. سمعت صوت هريرة تحت السرير.. نهضت أسرع الى غرفة قائد السرية لاهثاً... أتوسل إليك يا سيدي ثمة هريرة ومواء تحت سريري... وضحك وتشنجت، وقرأ ربعباً قاتلاً في وجهي... غير أنه تذكر حكايتي ثم رافقني الى الخيمة... أضاء النور وطلب مني أن أمد يدي.. لكنني ترددت فنادى على الخفير..

- انظر هناك...

مد الخفير يده وصاح كأنما وجد كنزاً...

- يا الله إنها قطة السرية وقد ولدت ست قطط صغيرة.. ها هم بعيونهم المغمضة...

وصرخت إذن سبعة وجوه لجروة تنام في عيون القطط الصغار وأمهم، وسيراها الجميع... ورفضت أن يراها أحد في عيون القطط... وتوسلت الى أبيها الذي صرخ في وجهي، أغرب أيها القذر لن أزورك منها... وكنا نلتقي قرب البئر الغربي. حيث الحجارة وبركة الماء الصغيرة التي خلفتها الأمطار... وأسمع أحاديثها التي تنزل على جدران البئر... حيث هديل الحمام... لكن بعد أن ماتت جروة لم أسمع سوى صدى صوتي...

وحتى عندما ثبتت النار في جسدي في إحدى المناورات في الصحراء، هربت من باب الخيمة وركضت مثل حيوان يحترق وأنا أصرخ باسمها... جروة... جروة... وكانت المرأة المصرية تلقي القط في وجهي... كان شبوحها يطاردني عبر دخان احتراقي... الهارب تحت شمس الخلاء... اقترب مني أحدهم ولفني ببطانية... وفي المستشفى كنت أصحو على مواء وألسنة القطط تلعق جراحي.. لكنني كنت أنادي جروة... جروة... وظنني الطبيب مختلاً فأتى لي بجروة جميلة كي تسليني... أجهشت في البكاء ثم حولني الى قسم الأمراض العقلية.

ولما سألتني الطيب النفسي... حدثته بقصة بائع الدجاج وكيف كنت أقف عنده في صغري... أرتعد من البرد وأراقب سكينه الحادة تلوح خلف القفص... بانتظار دجاجة أخرى وأتخيل نفسي إحداها... ثم أهدق بالقطط التي تلعق المصارين بشراهة حين يقذفها لها في الطريق... فأتخيلها فوهة البئر التي التهمت جروة وحكايتي معها!. كنت أحبك يا جروة.. وأحب حديثك الشجيّ عند البئر... حيث كنا نجلس نستمع لهديل الحمام الصاعد مثل صلاة من أعماقه السحيقة، الآن جفت البئر وأصبحت مأوى للخفافيش والغربان... شددت على يد جروة... لأول مرة تدفن رأسها في صدري.. شعرت به حاراً... مررت بشفاهي على ضفائرها... اضطربت مثل حمامة... شددتها إلى قلبي كدت أدخلها هناك. لكن في اليوم الثاني... عند العصر... وبعد أن لجأ الناس لبيوتهم بعد يوم مطير... ذهبت الى البئر استرجع ذكرى لقاءها... كانت برك الطين تملأ القرية... والريح ساكنة... انقشعت الغيوم للحظة وارخت الشمس ضوئها الخافت على التلال.. شعرت بخوف أسرع.. لمحت طرف ثوب امرأة عرفته من القرنفلة المطرزة على ثوبها... اقتربت من البئر ثمة صوت يهوي الى أعماقه الباردة... أكرم... أكرم... طار عقلي ركضت وراءها... جروة... جروة... رددت أصداء البئر صوتي... لمحت عباءة سوداء وشبحاً يهرول ما بين الجدران. لم أتبينه لكنه اختفى وبلحظات اجتمعت القرية حولي... وأشارت أصابع الاتهام بأني قاتل جروة.. لم أتحدث سمعت نفسي أموء... أعوي... وأعوي.. ثم هرع الرجال بمسكون بن قبل أن ألقى بنفسي وراءها.. واتهموني بالجنون... وغطس الرجال وراءها لكنهم لم يجدوها ثم أتوا بأمر الغطاسين من المدينة.. عبثاً.. ونزل عمها الذي كانت تحبه وتحاول أن يكون واسطة خير كي يتم زواجنا.. وطارت الغربان من أعماق البئر.. وتجمعت حول الشمس في دائرة سوداء كأنها رقصة مأتمية خالدة.. ثم نادى من قاع البئر أنه بحاجة

الى جبل وبطانية.. وطال الصمت.. كان كل من في القرية يحبها... نادى من قاع البئر مرة أخرى... سحب الرجال الجبل... بعد لحظات سأراها... وقد تجمدت ثفتها على آخر حرف من اسمي.. لكن الشرطي كان قد وضع قيده في يدي... واقتادني الى مكان بعيد...

هل كانت مغطاة..؟ هل تدلّت ضفيرتها المبتلة الى الأرض...؟ بعد أن أثقلها الطين..؟ هروا الرجال الى البيت.. لو تركوني ألقى عليها نظرة أخيرة... وعلا نعيق الغربان... أمامي مرت قطة.. وكان الشرطي يقتادني عبر نسيمات العصر الباردة.. في المستشفى كان الممرض يحقنني بالأدوية المهدئة كي أكف عن العواء... كنت أرى القمر.. لم أراه مكتملاً قط.. كان مواء القطط يلاحقني.. وظل يحقنني بالخدر.. وأحس بنفسني في كيس من الخيش كأنه البئر الذي سقطت فيه جرورة.. نظرت من النافذة.. لاح لي القمر شاحباً.. من خلف الصفصافتين.. ألمح قفص الدجاج.. كان فارغاً... والسكين ما زالت معلقة خلف قضبانه الحديدية وشبح زوجة بائع الدجاج يتوارى خلف الحائط، الدكان فارغة... البئر فارغة إلا من صوت الحمائم التي رفّت حين ارتطم جسد جرورة بالماء.. أتطلع الآن من النافذة... لعل لمدينة قد أغفت..؟ وأغلقت أبوابها..؟ وانطقاً القنديل استسلمت أمي... خرجت لخفافيش من البئر تحوم.. أتطلع من نافذة المستشفى.. ثمة أنشودة.. إنها مصنوعة من جدائل جرورة.. أحدق أكثر.. لا.. إنها ليست جدائلها.. إنه الدخان الكثيف المنبعث من جلدي الملتهب.. المواء يلاحقني.. أهرب باتجاه البئر الغربي.. الممرض والطبيب يلاحقاني حيث كيس الخيش الذي سيضعاني فيه ليكون مستقر جنوني وهذيانني أو لعله بئر الصمت الذي تسكن إليه الأرواح بعد نشيجها في الجسد.

العجوز

شمس الخريف تتلألأ في كبد السماء حانية خجول... ثمة رمانة منفلقة معلقة بالغصن الأصفر المحمر تلوح حباتها في الأفق آيلة للقطاف، يتحلّب ريقى باشتهاء مر في ذلك الحقل الممتد ما بين حدود الكرمة الى سياج الخروب، وحين تعبر عواصف الخريف تسقط منها حبة أخرى فأشتهى قطافها.

مات الحاج مرجي.. جاءني صوته مرتجفاً... لم أصدق ما أسمع لا يعقل من شاهدته قبل أيام يغفو بوداعة صبي على ركة زوجته، لكنه مات وسجل أول قصة موت في البيت الخرافي حسب اعتقادي.

حين أتيت وزوجي قبل ثلاث سنوات وكنا ما زلنا مخطوبين، نبحت عن مسكن يكون عشنا الزوجي، كان أول شرط للبيت أن يكون بيتي بلا موتى (لم يتوف به أحد من قبل...) يومها أعيانا السير ونحن نبحت في أطراف المدينة عن بيت لنا دون طائل، فمن أقبية تحت الأرض يعيش ساكنوها أشبه بحياة الجرذان إلى مساكن ضيقة الغرف تشبه علب السردين، كلها تنطق بلغة واحدة (أجور باهظة)، لكن حين وصلنا هذه البقعة من المدينة بهرنا جمال قصورها المشادة تحت سقوف القرميد القرمزية.. وفي سري تمنيت لو أن لنا بيتاً فيها... وشدت على يد خطيبي ثم رحنا نتجول في المنطقة لا لشيء إلا للتمتع بجمالها إذ لا يعقل أن تكون هناك مساحات خاوية في مثل هذه القصور يقدمها أصحابها للباحثين عن شقق تأويهم..!

فجأة وجدنا أنفسنا أمام حقل خرافي يغص بأنواع مختلفة من الفاكهة

ترقص على أرضه الأعشاب وأنواع مختلفة من شقائق النعمان... ثم فراشة بيضاء رقصت أمامنا وكأنها تدعونا للإقتراب.. كان هناك «فيلا» حجرية تشبه أسطورة جميلة، دفعنا الفضول للإقتراب من الحقل الممتد وكأنه يهتف بصرامة كثافة أشجاره «أن لا مكان للمدينة هنا..» لفت نظرنا عجوز يرتدي الحطة والعقال وسروالاً عتيقاً يمتد على العشب الأخضر يتنعم بأشعة شمس نيسان الخجول، ودون أدنى تردد أدركنا أنه حارس البناية اقتربنا منه ثم سألناه عن شقة للإيجار؟

رفع رأسه وجلس يحدثنا:

- لمن

- لنا

- هل عندكما أولاد؟

- لا.. ما زلنا مخطوبين.. (قال له خطيبي)

- أبشرا وصلتما مبتغاكما.

انتبهت من غفلي وأنا أهدق في أشجار الصنوبر والخروب، اعتقدت أنه سيدعونا لمقابلة مالك البيت أو يدلنا على مكان قريب، لكن لدهشتنا نادى على صبيبة ترتدي الثوب البدوي طلب منها أن تحضر المفتاح كي نشاهد الشقة.

سرنا خلفها عبر الممر الأخضر الزمردى باتجاه الفيلا، حسبت ذاتي في عالم الخيال إذ هنا تختبئ أقحوانة، وتحت ظل الجوزة طبق من الخنون الأحمر، وعلى الدرجات الرخامية ترقد زنابق بريّة، ولما فتحت الباب لنا وأيقنت أن المسكن المنشود هو جزء من الفيلا الجميلة لم أصدق نفسي، أدهشتني سعة صالاته وإطلالته المشرفة ثم أشرت بفرح غامر لخطيبي أنه لنا وأنه أجمل بيت شاهدته عيناى، تفحصناه غرفة غرفة كانت جميعها مظلة على الحقل الخرافي وحين سألناها عن صاحب المسكن قالت إنه عمي ذاك

الجالس أمام الفيلا خجلت من نفسي كيف ظننته الحارس، عدنا إليه طلب مبلغاً «معقولاً» مؤكداً على ضرورة كتابة عقد بيننا الآن... وأنا في نفسي هتفت (بل اللحظة) قبل أن يفوز به غيرنا...

ثم قال: أنا أمي لا أعرف القراءة ولا الكتابة وكنت (أرعى الجمال ثم أعطاني الله ما أنا به الآن من ملك) حدقت في عينيه الزرقاوتين كان بهما بريق عجيب، وقعنا العقد ثم هبطنا التلة، غير مصدقين أننا فزنا بمثل هذا المسكن وابتدأت ترتيباتنا لتجهيز عشنا الزوجي.

أعترف أننا جعلناه تحفة من الخيال، ما بين القطع التراثية إلى قطع الأثاث الجميل المتناسق الألوان، أما مدخله فقد حرصنا على أن يكون امتداداً للحقل الأخضر المحيط به، وعلى البوابة علقنا زوجي لوحة نحاسية محفور عليها يدي امرأة تطلق حمامة السلام كانت رمزاً لبيتنا وللود الذي عشنا به. في الليل كانت تتألق الأضواء لتتضافر معها أنغام الموسيقى التي يعزفها زوجي فننتقل الى عالم سحري، إلى أنهار عابقة تُبهرنا خضرة الأشجار وجمالها، وكثيراً ما تجولنا في الحقل أو جلسنا تحت أشجاره الكثيفة لأكتشف بأنه يحتوي على جميع أنواع الفاكهة التي لا تنضب، أما أمام غرفة الجلوس التي كانت تقبع تماماً تحت غرفة صاحب الدار فقد كان هناك بيت قديم من الحجر والطين بابه من الزينكو يشوه جمال الحقل والفيلا لكنه قائم أبداً وحين استفسرنا قيل إنه بيت صاحب الدار القديم الذي أصر على بقاءه حتى لا ينسى أبداً كيف كان يعيش.

ما أن حل الخريف الأول على سكننا في الدار وبدأ موسم الزيتون حتى تحول صاحب الدار العجوز الى شعله من النشاط، يقطف الثمار ويجمعها ثم يرسل بعضاً منها الى معاصر الزيتون.

وبعد أيام أتى ببغلة تحرث الأرض كان يمتطيها فتقلب العشب الى تراب أحمر اللون يدعو لتقبيله ومعانقته والاتصاق به كان الفجر مزيجاً من

السحر ما بين تبديد الغسق ودخول أطيايف الغيم حاملة الندى ورائحة القهوة المحمصة المنبعثة من غرفة صاحب الدار حتى إذا أشرقت الشمس بدأ نشيجه وقصائده بصوت شعبي يجعل دمعة السامع تنحدر على الخد ثم يقضي بقية النهار مع الحقل يسوق البغلة يحرث الأرض ويسقي الشجر. فجأة وقعت البغلة وانكسرت ساقها شاهدتها قرب الدار مستلقية كان يأتيها بالطعام والماء وفي أحد الأصابع الندية شاهدته يحمل البارودة.. وقف أمامها سددها ثم أطلق الرصاص.. انتفضت البغلة وحشرجت ثم لفظت أنفاسها. ترنحت ومادت الأرض بي ولما سألت (قال أن كسرهما لا يجبر ولا حل لها سوى الموت) عجبت من شجاعته وقدرته على قتلها بالرغم من حنوه وعطفه عليها، مع أول زخات للمطر شهدتها في بيته أبعث من تراب الأرض رائحة لم أشهد مثلها، وتلبدت السماء بغيوم حمراء، لمحت العجوز في حقله مترنحاً كمن هو في غيبوبة الصلاة، تارة أراه منتشياً وأخرى حزيناً وكأن المطر قد فعل فعلته وأطلق أشجانها، ولما اشتدت شآبيب المطر وانسقت السماء ليلاً عن برق مضيء ورعد قاصف كان يجلس قرب السنديانة كأنه جزء منها حزين تنهشه ذكريات لا يذكرها لأحد إذ كان له عالمه الخاص وحضوره المسيطر فهو السيد الأمر الناهي، إذ بالرغم من ثرائه الكبير كان قد أبعد أولاده عن عالم حقله الخاص، فكانوا يعملون في المدينة ثم يرجعون الى سلطانه حيث المسكن الكبير. ويظل عالم الحقل له لا يجرو أحد على المساس به، اللهم إلا أولئك العمال الذين يحملون صناديق الخوخ والعنب وأكياس الزيتون إلى السوق لبيعونها، وحين كان يقبض ثمنها أو أجار بيتنا كانت تشرق أساريه ويرجع طفلاً «حوراً» أمام سحر الدنانير التي لا يدرك أحد أين يذهب بها، إذ بالرغم من فخامة الفيلا إلا أنه كان قد جعل غرفة جلوسه تشبه بيت الشعر، ثمة حشيات ينام عليها وبجانبه ترقد محماسة القهوة العربية وهناك عباءته وكل ما في الغرفة يوحي بحياته البسيطة، الشاقة التي كان يعيشها.

ظل سر ذلك اليوم الشتائي يبعث هلعاً في قلبي سيما صوت الرياح الذي كان ينوح ما بين الأشجار ويتحطم على نافذتي مفجراً بركاناً من الحزن الدفين في أعماقي ووجهة العجوز الذي كان ينطق صمتاً شجياً، والسنديانة التي كانت تبدد الأفق بوحشتها حتى صار موسم الشتاء موسم قلق، وما أقساه في تلك البقعة من المدينة فكانت أول قبلة للمطر وآخر محطة يتوقف فيها.

في ليلة مطرة بينما كان زوجي يعزف لحناً حزيناً على الناي سمعنا يداً ثقيلة تطرق الباب دخل العجوز، طلب من زوجي أن لا يتوقف عن العزف ثم جلس مطرقاً يستمع بكل أحاسيسه تحولت الليلة الى أسطورة رخيمة، وجه العجوز وصوت الرياح وعزف المطر، فجأة توقف زوجي عن العزف، اكفهر وجه العجوز تتم بكلمات قائلاً: «في ليلة مطرة فقدت ولدين من خيرة أولادي... أدمع ثم انتبه، نهض مثل جمل نافر ملم أطراف عبائه، خرج واختفى وسط شآبيب الليل.

هذا الصيف أثمرت أرضه كما لم تثمر من قبل... أول الصيف قصدت الكرم أقطف بعض أوراق الدوالي لأطهوها، وحين اقتربت منها كانت أصغر من أن تقطف، عبثاً بحثت عن ورقة ناضجة، من بين الأوراق.. أطل وجهه ضاحكاً: لم يحن بعد وقت قطافها... «ثم سألتني هل أنت سعيدة في البيت؟ أجبتة نعم... لولا ذلك الشعور الغامض الذي يكتنفني حين يُطلق صرار الحقل صوته ليلاً أو تجن رياح الشتاء».

لم يقل شيئاً.. كنت أمسك بيد صغيري حين أقرب منه، قبله ثم مرّغه على التراب قلت: أهذا أنت الذي كان يخشى أن يكون لدينا أطفال؟ قال: كنت وما زلت أخشى على الحقل لكن الأطفال عيال الله وأحبابه ثم اختفى.

مات الشيخ..، كان أول ما فعله الأولاد أن هدوا الدالية التي كان

يجلس تحتها، ثم شاهدتهم صبيحة موته يقتلعون عدداً كبيراً من الأشجار لبناء بيت الشعر الذي امتد مثل مقام نبي أمام بيتي وقف تحته الرجال يقدمون العزاء ويحتسون القهوة المرة، وحين قَدِمَت الجنازة من المستشفى توقفت سيارة دفن الموتى أمام الحقل ثم سار الموكب حزيناً وغربان النساء المتشحات بالسواد يطلعن النواح.

حل الشتاء. قاسياً اكتست المدينة بالثلج والأشجار تغطت بطبقة سميقة من البياض، فتحتُ النافذة فاخترق صدري هواء صقيعي، تذكرت أول مرة تساقط الثلج كيف هبط العجوز مثل ملاك الى الحقل متدثراً بمعطفه يغطي رأسه بكوفية ويحمل عصا يزيح بها ركام الثلج عن الأشجار.. الآن أشجار الزيتون تنوء بحملها من الثلج بعضها قد تقصف، وبعضها صار طعاماً للجرافات المعدنية التي أتت تدمر الحقل لتُشاد مكانه عمارات اسمنتية اشترها أصحابها من الورثة، لكن السنديانة ما زالت مكانها أُحرق فيها وباخضرارها.. الثلج يكسوها.. أُحرق أكثر، ويظهر العجوز بكوفيته ومعطفه العتيق يسير حولها.. أفرك عيناى، ثمة شايبين يسيران خلفه هل هما ولداه.. لا أدري؟ لكنني لم أرهما من قبل إنهما يسيران ويسيران يتجولان في الحقل والسنديانة التي أبت على الانجراف أمام أعتى الجرافات ما زالت صامدة! هل بُعث من قبره؟ تذكرت كلام زوجته يوم وفاته: هنا دفن ولديه تحت السنديانة، صعقني كلامها تذكرت سر تلك الليلة الشتائية، أُحرق أكثر أراه مع الشايبين يسرون بخطوات وثيقة يهزون أغصان الزيتون.. يرفع رأسه ثم يضحك لي ضحكة طفل تمتد يده بقطف عنب (لكنه ليس موسم العنب) أتذوق حباته الشهية أشعر ببرودة في حلقي.. لا إني أهذي لا شك أنه هذيان الثلج وحمّاه، أنتبه على صوت طفلي أدير رأسي كان زوجي يقترب مني يحمل الطفل..

قبضتي متشنجة، تلسعني برودتها، أمسكها زوجي ليفركها كانت
منقبضة دعكها ابتدأت تتراخي، أشعر بدفء تباعد الأصابع افتحها...
يصدمني عرموش عنب يتمدد في راحتي!

١٩٩٣/٧



الانتظار

العاشرة ليلاً اجلس في بيتنا العتيق المهجور أراقب أبي المسجى على السرير الخشبي بعدما أصرّ على قضاء الليلة هذه في بيتنا القريب من سكة القطار والتي قضى حياته عاملاً في المحطة كان ينظر بعينه كمن يرتقب قادماً... وكنت أسهو قليلاً ثم أصحو على وهج الضوء الذي يشعله لينظر ساعته مردداً لم يحن الوقت بعد... وما بين لحظات انتظاره الكئيبة كان يطلب مني كوباً من الماء يرتشف بعضه مردداً: (إنه نفس الطعم لم يتغير) وأنا كنت ارتعد خوفاً واردد في سري هل حقاً تصدق نبوءة أبي؟ وهل تكون الليلة موعد سنوية أمي يوم عرسه وزفافه إليها!

كنت أحدق في وجهه ثم انظر الى الساعة فتظل منها نظرات عينيه الصارمتين مردداً: سترين كيف أن الليلة موعدنا.

كان وجهه صافياً وكأن عناء السنين والأحاديث المحفورة فيه قد تلاشت وحل مكانها وجه طفل بريء معافى ومع ذلك فقد اختلى بي منذ أيام وهو يقلب أوراق التقويم وقد توقف عند هذا اليوم ثم قال هنا سيتوقف قطاري الأخير....

قلت كفاك هذارا أنت تعرف أن الغيب محجوب عن البشر وهذه مجرد ارهاصات تعيشها نتيجة اقتراب سنوية أمي

قال لا هذه هي الحقيقة وسترين بنفسك ثم دخل في نوبة من الصمت الكئيب وفي اليوم الثاني غاب عن البيت طويلاً حتى قلقته عليه فلما رجع مساء قال أنه قد ذهب الى محطة القطار لوداع اصدقائه.

منذ وعيت الحياة وأنا أرى أبي يعمل في محطة القطار كناظر للمحطة ينتظر وصول القطارات ويضبط موعد رحيلها إذ يعيش لحظات الانتظار بقدرسية ويظل قلقاً حتى يقرع بيده جرس القطار فيسمع صفيره كثيراً ثم يتحرك من أمام أبي الذي يتابعه بنظرات جنائزية ويظل قلقاً متلهفاً حتى يصل القطار الى البلد المنشود.

أذكر يوماً كان القطار قد تأخر عن مواعده قليلاً كيف أمضى الوقت سائراً على سكة القطار حتى إذا رآه انفرجت اساريره مثل طفل يلاقى أمه وهلل مستبشراً!.

في أحد الأيام عاد الى البيت حزيناً مهموماً يحمل منديلاً ملطخاً بالدماء اقترب من أمي وفتحها أمام شهقاتها ورعبها ثم أجهش في البكاء وهو يردد.. أنه أصيب أحد المسافرين الذي وصل متأخراً فتعلق في عربة القطار لكنه سقط أرضاً وبترت اصابعه.. وبعد نقله الى المستشفى وجدت الاصبع ملتصقاً بالسكة الحديدية فأخذته الى المستشفى لكن بعد فوات الأوان... وسمعته يردد لو تأخر القطار لحظات.

ثم دفنه تحت شجرة الياسمين التي صارت تحمل عنقايد ياسمين مخضبة بالأحمر كانت ملجأ أبي في لحظات المه المرير

سمعت صوت سعاله نهضت مسرعة وأضأت النور كان وجهه وديعاً مثل وجه طفل همس لي بصوت واثق.. لم يحن الوقت بعد.

قلت له كفاك هذاراً لا شك أن حمى القطارات تتلبسك الليلة وروح أمي الهائمة في ذكرى سنويتها

ثم طلب مني أن أحضر له ساعته الفضية التي أهديت اليه تقديراً لجهوده عندما أحيل على التقاعد.. وحين فتحت صندوق الأشياء القديمة فاحت رائحة الطفولة منه والأشياء الحميمة.. وشاهدت حطام قاطرة صغيرة من بقايا لعبي الطفولية حملتها وناولته الساعة، حذق بها طويلاً وكاد أن

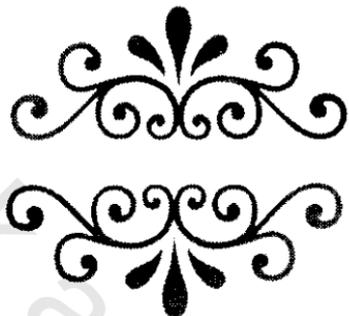
يحدثني بأمر لكنه عاد وأغلقها وطلب مني أن أرجع الى سريري.

حين عدت الى فراشي أحرق في الضوء الأصفر الشاحب امتد شريط غير متناه من الذكريات وسمعت صوت أمي هامساً حانياً فقد كنت وحيدة أبواي ولطالما تمنيا أن يرزقا بأخ لي لكن الأطباء أعلموهما بأنهما لن ينجبا غيري بسبب تعرض أبي لهباب القطارات.

كانت حياتنا بسيطة إذ كان يرجع أبي مساء الى البيت يتحدث الينا عن المحطة والقطارات والمسافرين وحين وعيت أكثر احضر لي قطاراً صغيراً يسير على سكة حديدية كان يجلس لساعات طوال بينما أراه مثل قاض يحكم بالسفر على بعض الركاب ويوقف آخرين وعندما كنت احتج على معارضته في سفر أحد الدمي كان يقول لي «كل له وقت سفر محدد..» ولطالما تساءلت ألا يمل أبي من حياة الانتظار ما بين المحطة الكبرى والأخرى المصغرة! لكنه كان يجيب بأن حلم حياته كان أن يصبح سائقاً للقطارات في الوقت الذي كنت أشعر برعب حقيقي حين أسمع صافرة القطار مولولة.

انتبهت الى صوت قاطرة مودعة... ولت نفسي أنني قبلت أن أقضي مثل هذه الليلة هنا مع خليط الذكريات.. حدثت الى الساعة كانت تنبض بشدة... تساءلت ترى هل تصدق نبوءة أبي أم أنها مجرد هلوسات؟ ترى هل نملك في أعماقنا ساعات أزلية توجهننا.. لاحظت وجود خطين متوازيين على الحائط قلت لعلهما من بقايا رسم الطفولة بينهما شاهدت وجه أبي كنا نجلس على الأرض وسكة الحديد ممتدة الى ما لا نهاية وأرض الغرفة عالم مصغر.. جاء القطار هادراً.. غطى كل المساحات ثم توقف.. صعد الركاب اليه.. لم يبق أحد على رصيف المحطة حان الوقت لقرع الجرس وبدلاً من أن يتجه أبي الى الجرس ليقرعه قفز الى القطار الذي بدأ يتحرك دون قرع جرس ووجدت ذاتي أركض على الرصيف باكية بينما صوت القطار يعطي وقعاً حزين.

تنبهت من رقدتي وادركت أنني غفوت قليلاً اسرعت الى سرير أبي
أضأت النور كان ساكناً وعلى وجهه ابتسامة أخيرة ذات معنى... ناديت
عليه انتحيت... هززته.. نظرت الى الساعة الثانية عشرة تماماً... من بعيد
سمعت صوت صافرة حزينة.



عامل الحانوتي

انهى آخر لمساته الجنازيرية ثم تطلع في الوجه غير مصدق.. دار حول نفسه ورخص يحضر صورته الصغيرة ليقارن الشبه الكبير بينه وبين الميت المسجى وهو يردد بين نفسه لو كان توأماً لي لما كنا متماثلين بالشكل هكذا... وتأمل الميت قائلاً لنفسه سأكون هكذا بعد وفاتي ثم أحضر مرآة كبيرة، وتطلع بها، معانقاً الميت.

يا له من شبه غريب بيننا، لاحظت ذلك منذ أن أحضروه الى هنا. وطلب مني أهله أن أعدده للدفن صحيح أنني جهزت الكثير من الموتى في حياتي، لكنني لم أشعر بمثل هذا الشعور من قبل إذ كنت أتعامل معها على اساس أنها دمي.. أحفظها وأدعك أجسادها بالمسك والزعفران والحنة، واختار لها أكفاناً جميلة توابيت رائعة، لتغفو إغفاءتها الأخيرة بسلام وقبل أن أغلق التابوت كنت أشعر وكأن الميت يمد يده لتودعني، لكن هذا الميت شعرت بمودة تجاهه وكأنني أحفظ نفسي... كان أهله قد اختاروا له أفخم تابوت وأغلاها سعراً.. ولو أنني كنت في بداية عملي لشهقت أمام الثمن الذي طلبه صاحب الحانوت، إذ من يضع تحت التراب مبلغاً كهذا يقدم لديدان الأرض الشرهة.. ومع أنني كنت أخاف كثيراً من رؤية ميت إلا أن الجوع جعلني أقبل العمل هنا، ومثل اختلاف أذواق الناس في اختيار ملابسهم وأثاثهم كذلك تختلف أذواق ذويهم في اختيار أنواع التوابيت.. فهذا تابوت أميركي الصنع، وذاك فرنسي، وكنت أتساءل ترى هل يختلف الحساب في التوابيت، وهل يخاطب ملائكة الموت أرباب التوابيت حسب لغة البلد الصانع له.. وبحسرة كنت أسترجع ذكرى أُمي العجوز التي

قضت عمرها توفر من بقايا قروشها القليلة آملة أن تكفن بكفن من الخام الجيد كي لا تدفن بثوب ممزق مثل ثوب جدتي التي ما أن حملها الرجال على أكتافهم حتى خرج من الثوب صرصار كبير، أدرك أن زمان إقامته قد انتهى، وأن عليه البحث عن مكان آخر... لكن أمي ماتت غرقاً في النهر الذي جرفها الى الأعماق، وقدمها قرباناً للأسماك الشرهة، ولم يبق لي سوى بقايا جديلتها التي علقتها في غرفتي.

وظل صدى اغنيتها الحزينة التي كانت ترددها أثناء غسلها لثياب الناس على كتف النهر يردد صداه في أذني.

كان من عادتي بعد الانتهاء من طقوس الجنازة ودفن الميت أن أذهب الى المقبرة لالتقاط صورة تذكارية للقبر وأحيطها بإطار عاجي ليأتي بعد ذلك أهل المتوفي وأخذها لتظل صورة للأحفاد القادمين، تذكروهم بجذورهم التي تندثر مع شلال الزمن الهادر الذي لا يتوقف.

في نفسه تساءل ماذا لو كان هو الميت وكان هذا المهرجان الضخم الذي سيقام غداً له، ثم ضحك وهو يردد واحسرتاه أمي ماتت بلا قبر.. تخيل عربة الموتى التي ستسير ببطء وأكاليل الزهر الجميلة، تساءل لم لا يتتهج الموتى أمام هذه الاحتفالات المهيبة.. ثم خطر بباله خاطر لم لا يكفن نفسه ويصبغ وجهه بالزعفران ويجرب النوم في مثل هذا الثابوت الفخم وسط الأضواء الناعسة والأثاث الفاخر الذي يليق بالموتى الموسرين.

كان الحانوت يشبه المعابد المقدسة بأضوائه وأقواسه وأصوات الترانيم الجنازية التي تليق بالمناسبة، وكانت قوارير العطور الفاخرة موزعة على الأرفف وثمة رؤوس مختلفة من الجبس منصدة على الرفوف تمثل بعض الموتى الذين تم عمل تماثيل لهم، في نهاية الغرفة مغارة كبيرة لها قدسية خاصة، وبها الكثير من حاجيات الموتى مثل المر والزعفران والكركم والزنجبيل وزيت الكاد، ثم سرير للموتى قربه حزام متحرك يشبه حزام

الحقائب في المطارات، بحيث يستطيع نقل الميت من مكان لآخر... وهناك الستارة المخفية حيث يدخل تحتها الحزام المتحرك إلى الغرفة السرية التي لا يدخلها أحد غيره وغير مواته لاجراء اللازم لهم.

كان التابوت المطعم بالعاج قد صار مجاوراً للميت الذي انتهى من اعداده، ولم يبق سوى تحريك الحزام المتحرك ليصير داخل التابوت، لكن الفكرة الملحة التي بداخل رأسه تدفعه للتجريب لعله يجرب موت الموسرين.. ثم أنها فرصته الأخيرة لا سيما أن الميت يشبهه وهو الذي عاش حياته فقيراً فليجرب للحظات طعم الثراء.

تعرى ثم نظر الى جسده تحت الضوء الشاحب وأمسك زجاجة الزعفران ودهن نفسه وهو يضحك.. تابع عمله وأضاف المسك والحنة ثم احضر كفنأ حريراً لفه حول جسده ولم يبق سوى يده اللتان قرر أن يدخلهما في آخر لحظة.. توسد التابوت وضغط على زر الحزام المتحرك وبدلاً من أن تدخل جثة الميت الى التابوت تراجعت للخلف ودخلت الغرفة السرية.

أما هو فقد استلقى في التابوت على وسادة حريرية وسحب الغطاء، إلا قليلاً.. ثم نظر الى الضوء الخافت وراح في سبات عميق. في الصباح أتى أهل الميت لاستلامه وسط موكب جليل يتقدمهم صاحب الخانوت الذي كان يرتدي بذلته الرسمية كما هي الحال عند تسليمه للشخصيات الكبيرة.

كانت الأنوار مضاءة والتابوت بمكانه المعتاد ساكن... وطرفه الصغير متزاح قليلاً عن مكانه... تقدم الأهل ألقوا نظرة أخيرة على الميت راعهم جمال التابوت ودقة صنعه.. اقترب العمال بملابسهم الرسمية أغلقوا الغطاء وحملوا التابوت دون أن يلاحظ أحد أن الميت هو عامل الخانوت بينما كانت جثة ميتهم تقبع في الغرفة الأخرى بانتظار عامل التنظيف ليحملها

على أنها جثة عامل الخانوت بجنونياته المعتادة التي كانت تضجر صاحب العمل.

في الخارج كانت الأبواق تعزف لحن الرجوع الأخير وثمة حشد كبير كان يؤدي التحية لثمان العامل البسيط.



مدينة الدمى

قلت له أظن انتهينا ووصلنا الى ما نريد.. تطلع اليّ كان في عينيه
اكفهرار مدينة أو انقلابها.. لا بل مدينة أطاح بها الزلزال فلم يبق سوى
الأنقاض. توقعت أن نثب معاً في قفزة متراقصة إذ بعد عمل مضمّن وسنوات
من البحث المتواصل لا بد أنه فرح جداً.

أجابني بقلق.. بصمت وبحيرة لا بل أنني خشيت أنه لم يفهم بعد ما
أقصد، تطلع اليّ برعب حقيقي ثم قال: لم يبق في المدينة سوى أنا وأنت
فقط.

قلت: والسُّعّار؟... والشفاء من الطاعون... هل يُعقل أنهم رحلوا؟ أم
أن الموت رحّلهم؟

قال: ما النتيجة.. المهم أنه الخواء.. الخواء الذي نكافأ به بعد سنوات.
قلت له: افعّل شيئاً.. تحرك.. توسل.. اصرخ.. لكنه أجابني بالصمت
العميق..

أيهذا الانسان الغريب كيف أستطيع اللحاق بك.. كلانا غريب من
مدينة بعيدة محنّطة، حدثني عن حياته.. وعن رجل كان يجاور المقبرة
يلحق كل جنازة ييكي لها.. ويلحق بها مصلياً يحاول أن يستفيد من كل
معلوماته الطبية ليرجعها.. فقد كان يدخل مع موتاه الى غرفة صامتة
يتحدث إليهم.. يخاطبهم.. ثم يسأل أهل الميت عن ماضيه وعمله.. ويقرأ
بعض التعاويذ والأدعية ثم يغلق الكفن الأبيض نافثاً حفنة تراب وفناء
ويخرج صامتاً.. وكانت له هواية سيئة هي جمع رفاة الموتى.

قلت: أي مجنون هذا الذي يتحدث الي؟!!

قال: في يوم شعرت ببؤس الحياة وبأنها حياة خاوية تلك التي نعيشها تكبلنا سلاسل واهية.. خيطان من حبال لا مرئية نظنها الأمل والحلم والبناء.. ونلحق بها لنكتشف أنها السراب.

توقف أيهذا الرجل المهذار عن الكلام.. إنك تؤلمني قلت له. لكنها الحقيقة ثم مضى باتجاه آخر في الحياة.. وتحول من طبيب نصف محبوب الى طبيب حقيقي للبحث عن الحقيقة في المدينة، وحين استشرى بها مرض غريب أشبه ما يكون بالطاعون نذر نفسه عاملاً بنصيحة امرأة كانت يوماً قد عمدته بصليب في أحد المقابر قائلة: قبل أن تبدأ بمداواة الناس والكشف عن سر الحياة ابحث عن معنى الموت.. وكنت مثله امرأة غريبة تساوي لدي الريح والخسارة.. الحب والكره.. الموت والحياة إذا ادركت أن استقرارنا مزيف وأنها رحلة عابرة.. وعملنا معاً..

كان عندما يقف أمام انسان ميت.. ينفجر في الضحك ثم يأخذ في البكاء.. إذن اللحظة توقف هذا المحرك عن العمل وهرب الى بساط الفناء.. الآن انتهى عمل هذه الدمية.. ثم اتخذ غرفة سرية وبدأ يصنع لكل انسان في القرية وجهاً من الحجر ثم يكمل التمثال حتى يصير على شكل دمية مصغرة يثبت لها محرراً.. تبدأ بالعمل.. إنك مصاب بجنوب العظمة قلت له.

لا بل.. أجرب.. ما يجري في الحياة.. هل نحن مجرد دمي متحركة صنعت لها قوانينها.. وعاداتها ومشاكلها.. تبدأ بالعمل مخمنة أنها خالدة، وبلحظة مفاجئة تتوقف.. قد يكون أثناء طعامها.. أو نومها.. أو راحتها.. انها لحظة مضحكة لحظة تنتهي.. اسمعي لا بد أن هنالك كاتباً كبيراً وقوة عظمى صنعت هذا الكون وتركت الناس يمثلون المسرحية التي كتبها.

قلت: ماذا لو شغلتك الأمور اليومية عما يدور في الحياة؟

قال: أتحوّل الى انسان مخدّر وأفضل الموت على ذلك، جاءني يوماً وطلب مني أن أقف أمامه وأبدأ يصنع تمثالين لنا.. صنعنا ديمتين مع أنهما كانتا غريبتين عنا لكننا اقتنعنا بأنهما نحن.. واحبيناهما.. للحظات كان يخطر بباله أن يقتل الدمية التي تشبهه، لكنها كانت تصاب بنوبة سعار مفاجئ ثم تجثو على قدميها متوسلة باكية ألا يقتلها.. ويتركها تركض تارة أخرى فيصيبها السأم والجنون...

آه من جنوننا وكنا نتطلع بعين حاسدة للمدينة التي تعيش حياتها سوية بمرحها وبؤسها وشفائها، وجبها إلا نحن الاثنين الغريبيين.
فجأة أصابها الطاعون، ازدادت صلواته وعذابه ورحيله في المقبرة خلف الموتى حتى حفيت وتشققت قدماه.. ثم قرر أمراً.
قال: سأحيي المدينة.

هرول الى مقبرته المصغرة وأبدأ ينادي عليها كانت منكسرة خاوية.. دخلت اليه كان نصف جاثٍ في حالة سجود.. وابتهاال، لم أراه يوماً أتعس مما كان عليه حالاً.
قلت: أيهم تعتقد أكثر بؤساً أنت أم هي؟ هي دخلت في الفناء أما أنت فإنك تعيش الخواء والمرارة وحدك... لم تعد تشعر بك كف عن الهذيان أتوسل اليك...

وصمم.. واستعان بكل علوم ومعاهد العالم وجامعاته لكي يحيي المدينة.. وتحوّل لمسعور يقرأ الكتب ويراسل الجامعات، ونحن نبحث عن عقار ناجع.. سهرنا معاً.. تعبنا معاً.. كانت وجوه من بقي في المدينة تطل علينا من كوة القبو الذي فيه مختبرنا وكانت مكسورة حزينة.. وكان يعدها بأنه سيصنع أمراً ويوقف المرض... وكان بمقدار حزنه وحنونه يتابع العمل الجنون بينما الوجوه تلاشت وقل ورودها الى كوة المختبر.
بمقدار يأسه كان تفاؤله.. سنضيّع عمرينا.. وصمت.. آه لو لم تتخطّ

الحاجز وكنا مثل الناس العاديين نتابع حياتنا دون أن نرفع رأسينا ونبحث عما خلف الدمى وحرركاتها.. والبحث عن خيطانها المحركة..
لّفه صمت مقدس.. صار كل ما حولنا صامتاً، المدينة، الكون..
وهتفت آه لو تغفو أيها الطيب، الذي نصب نفسه مثل آلهة تقاوم
الفناء.

لكنه كان مسهداً يأكله الأرق والتعب.. وكنا في أواخر مراحل
تجاربنا.. فجأة وجدته يغفو مثل طفل.. استسلم لسلطان أكبر منه.. وأنا
سهدت لوحدي أتابع عملي أحقن الفئران وحيوانات التجربة.. أرقب
الأنابيب أشاهد وجوهاً تكبر ثم صمتت جميعها دون استثناء وفجأة قامت
من سباتها ومرضها وقامت تمشي.. تطلعت إليّ بعيون حمراء غير ممتنة
لكنها حانقة.. كانت تتقافز.. أسرعت إليه لأوقفه من سباته وتوقعت أن
يقفز مهللاً.. استيقظ وفي عينيه غضب.. تطلع إليّ، حاولت أن أقرأ الفرح
في عينية عبثاً.. ثم فجأة وبرود الأرض الحيادي قال:

لم يبق في المدينة أحد..! فقد رحلوا...

- الى أين

- لا أدري

- هل خرجوا من تحت سلطنتنا؟

- لا أعلم

هل بحثوا عن مدينة أخرى؟ قال: نحن من صنعنا المدينة.

ففراننا قفزت من أقفاصها هاجمتنا برعب وحشي، أنا أمسكت يده..
حاولنا الخروج.. لا هذه ليست لعبتنا إنها ليست لعبة بشرية.. لماذا ابتدأنا
اللعبة؟ عاجلت البوابة، انطلقت ضحكة أموات في وجهينا.. أشباح المقبرة
خرجوا.. لم يلتفتوا إلينا.. عاودنا الهرب في درب آخر.. كان هنالك
جمجمة تهول وحدها.. ذعرنا أكثر.. اقتربنا منها، كان هنالك فأر معافى

يصيح:- ما فائدة أن يحمل حيوان بذرة الحياة لانسان ميت...
خرجنا بصعوبة.. هرولنا بعيداً بعيداً... لم نذكر شيئاً عن هذه المدينة..
وجدنا أنفسنا فجأة في مدينة جديدة على حافة الرصيف وجدنا المارة لم
نحدث أحداً بما جرى.. وما فعلناه.. لكننا فيما بعد تزوجنا دون أن يجرؤ
أحد منا على ذكر ما حصل سابقاً...
انشغلنا بالأطفال.. والحياة شأن البشر. كان دوماً في عيون أطفالنا قلق
وتساؤل مقيت... لكننا لم نشجعهم أبداً على طرح مثل هذا السؤال.



obeikandi.com

الآن ... انطفأت شعلة الحرب .. فأبي الشعيل نضياء
ولكن هل من وقود...؟
* هذه القصص تمت كتابتها أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١ *



obeikandi.com

وجوه بين الموت والحياة

حاصرنا الألم في غرفة واحدة من غرف المستشفى... كان ذلك في زمن الحرب... منذ مدة وأنا أحلم بمستنقعات زرقاء تغطي ساحات المدينة.. مستنقعات من طحالب لا لون لها، تتزاحم على الخروج من الماء متسلقة الجدران الهشة... ثم تسقط منزلقة الى عمق منبتها.

كانت الغرفة تضمنا جميعاً.. زوجة الجندي أتوا بها في حالة انهيار عصبي بعد تهديم جدران منزلها وبعد سماعها أنباء الحرب الضارية.. وإدراكها أن زوجها لن يعود من ساحة القتال...، والطفل الذي كان في حالة صراع مع الموت بينما أمه تتوسل بحرارة لله وللعاملين في المستشفى أن ينقذوه من براثن الموت...، والطبيب الذي كان يلف وجهه غموض أزلني مبهم...

كنت الممرضة الوحيدة المشرفة عليهم.. إذ أثناء الحرب تتزاحم الأسرة ويكثر الجرحى وتتحول الممرات إلى عنابر يختلط فيها الصغير بالكبير والطبيب بالمريض.. وكنا نعيش لحظات رعب قاتل، كنت أرقب بعض العجائز، وهن يقضين نحبهن بين الحين والآخر خوفاً وهلعاً عند سماع صفارات الإنذار، وأصوات القذائف الهابطة على المدينة..

كان الطفل هالكاً لا محالة أمام إصابته بالتهاب الدماغ، وقد دخل في غيبوبته وحالة كهذه تتطلب عناية تامة.. فكيف إذا كان طريحاً وسط هذا الحشد من الجرحى، ورائحة الجلد المحترق وهذا الموت الأصفر الذي ينبعث من كل زوايا المكان... أما المرأة فقد كانت تهذي تارة تتحدث عن موت زوجها الجندي.. وتارة عن الطبيب الذي دخل في محراب الصمت وراح

يمارس عمله بألية مربية... وكان وراء صمته حديث طويل.. كل ما نعرفه عن حياته الشخصية هو أنه عازف عن الزواج لأسباب لم يبح بها بتاتاً.

كانت عينا الصغير تنوسان في وجهه وكأنه يرى أشباحاً أو ملائكة خفية لا نراها، وبين حين وآخر، يعلو صدره صاعداً هابطاً.. والأم تنتحب.. تندب أيامها وحياتها التعسة.. حيث الابن يوشك على الرحيل والأب الذي يعمل في صيانة الآلات الحربية قد ابتلعه الحرب.

اقترب الطبيب يسألها عن عمر الطفل. وكانت غارقة في نحيبها لكنها تنفست بعمق ثم نظرت الى البعيد وقالت: إنه مولود في نفس اليوم الذي ولد فيه أبوه، إنهما في هذه اللحظة يتصارعان بين الموت والحياة، لقد أرسل لي والده خبراً أنه ما زال يعيش في عالم من الجحيم والدمار، وليتها فجأة ودون سابق إنذار.. انخفضت حرارة الصغير ودخل في سبات حركي وهو يعاني سكرات الموت وعادت المرأة الى وجومها الألم.. قطع علينا الحديث دخول جندي يسأل بلهفة عن مريضه، وقبل أن يسمع الجواب هرع نحو المرأة التي أتت في حالة انهيار عصبي.. وأسرع إليها معانقاً، وهو يردد: أخذت إجازة حرب وأتيت لأجد البيت قد تهدم قسم منه، وخمنت أنك قد تكونين مصابة ثم أخبرني الجيران أنهم نقلوك الى هنا فأتيت مسرعاً.. حمداً لله على سلامتك.. وتشبثت به الزوجة وألقت رأسها على صدره باكية وهي تنسج.. لقد هالني الدمار بعد انهيار الغرفة وكأن الشياطين قد قلبتها على أنقاضها وكانت رؤيا قاسية وأنا أتخيلهم يحملونك الي من ساحة الحرب على نقالة ميدانية كنت متسرلاً بدمائك المتجمدة.. وتيقنت من شيء واحد هو أن حياتي قد انتهت ولم يبق لي في الدنيا أي شيء.. وليس أمامي سوى الوحدة، ثم أجهشت بالبكاء لكن دويماً ضارياً غطى على صوتها وسط اهتزاز الجدران وزجاج النوافذ وأدركنا فداحة ما يجري.. وراحت الزوجة تسأله عما سيحدث..، كان حزيناً.. وقال إن قوات العدو عززت مواقعها ووصلتها إمدادات جديدة..، كانت أم الطفل تستمع.. هلعت لما يقوله الجندي.. إذ أن ذلك يعني هلاك الأب لا محالة..

وراحت تقول يعني أنا الأخرى سأبقى بلا زوج أو طفل.. يا إلهي لقد كنت أكره زوجي ولما حملت منه صرت أكرهه أكثر، إذ كان ذلك يعني ارتباطي به للأبد.. ويا لرعبي حين ولد الطفل في نفس يوم ميلاد أبيه، لكن حين رحل الأب الى الجهة شعرت بوحشة وندمت وتعلقت بالصغير تعويضاً عن الفراغ الحتمي الذي خلفه أبوه، لكن يبدو أنني سأفقد الاثنين معاً...

أما زوجة الجندي فقد ارتفع صوتها عبر نشيجها المتقطع... اسمع يا عيسى.. لقد أخفيت عليك أمراً لدي مبلغ من المال خبأته في أحد جدران الغرفة يمكنك إذا أخرجته أن تستغني عن كل مشاق العمل... وبعد أن ترك الجيش تعيش حياتك من جديد... كنت أراك تتعذب في البحث عن لقمة العيش، لكنني شاهدت أختي وزوجها وكيف كان يعاملها كخادمة واستولى على إرثها. وحتى أطفالها بعدما كبروا تركوا البيت وطافوا في الشوارع.. أما الزوج فقد هجرها إلى زوجة أخرى.. تاركاً إياها شبه متسولة.. اسمع.. لا يوجد استقرار في هذه الحياة ولا شيء حين يكون الزوج مجرد شريك يستنزف طاقات المرأة جسدها، عملها، انجاب الأولاد... هذه الكائنات التي تنبت من عذاباتنا حتى إذا ما كبرت ورأت ضعفنا وبؤسنا غضت عنا الطرف.. ولما كنت عقيمة ولم أنجب أولاداً أخفيت ما أملكه من نقود لأستعين به على الحياة إن أنت تركتني.. لكنك كنت غير ذلك ولم أنتبه لنيلك وشهامتك.. أطرق رأسه ولم يجب.. بل إنه ربت على كتفها مطمئناً.. «غداً ستنتهي الحرب وتفعلين بنقودك ما تشائين».. تعلقت بصدرة أكثر.. كان الطبيب يستمع لما دار بينهما من حديث وارتفع صوته متهدجاً بنغمة حزن شجية.

قال...: مللت من عملي، كنت أعتقد أن مداواة البشر والسهر على الآمهم هو طريق سعادتي.. أما الآن وأمام هذا الموت الذي يجتاح المدينة.. فأحس بعجزتي عن إكمال المسيرة..، لو أنني تزوجت.. لو أن لي طفلاً يحمل اسمي.. أو امرأة كانت بانتظاري.. لست نادماً على تكريس حياتي

للطب لكن حياة يحكمها قانون الحرب هي حياة باطلة.. والعيش في مدينة تستطيع أي قذيفة أن تحرق ربعها في ثانية واحدة يشبه العيش في مقبرة.. أنا لا أؤمن أن الحرب طريق السلام الوحيد لكن غباء البشر أصبح يفوق كل هرطقة التاريخ.. عشت حياة تخللتها آلاف من الجراح... الجراح العفنة.. التي كنت أعالجها.. تلثم على خبث البشر وشرهم.. الجرح يستولد الجرح والدم يستنزف الدم.. عبثاً كنت أصلح الأنسجة المتتهكة والجلود المحترقة.. يا إله السماء متى يتوقف شلال الدم..؟

بالأمس وصل آخر الجرحي.. كان شاباً في الثلاثين.. لم يكن يحمل هوية.. كانت في رقبته سلسلة هوية معدنية.. والرقم المحفور عليها كأنه نقش دارس على قطعة نقد أثرية.. وأما الكلمة التي تدل على ديانته فقد أمحت ولم يبق سوى هذا المقطع (مس) ولم نميز هل هذا يعني أنه مسلم أم مسيحي.. أو أين سيكون قبره في الأرض.. أما فصيلة دمه المنقوشة هناك فلم يبق منها أيضاً سوى نصف دائرة على شكل هلال.. وصليب (+) ربما كان دمه O⁺.. وبعد أن فتنشنا في أمعته لم نجد سوى ورقة مطوية كتب فيها ما يلي: (أبي.. أنا أحبك.. وأعدك أن أحب أمي وأخوتي.. في غيابك كما أوصيتني.. سوف يبقى حبك طريقي حتى لو سفك البشر دمي..).. آنذاك بكيت وبكى الطبيب.. ثم أردف..: أعتقد أنه لا يوجد معنى للحياة.. إنما نحن نشغل أنفسنا بما تصنعه أيدينا من بيوت أو مواد متفجرة على حد سواء.. ولحنا دمعة أخرى تترقرق بين أهدابه.

كنت أعشق مراقبة الناس.. والبحث في أعماقهم وخاصة في لحظات القلق والخوف.. ولذلك اجتذبتني مهنة التمريض.. كي أكون قريبة منهم ساعة الآلامهم.. وأشاهد بأم عيني كيف يتحول جبروتهم إلى ضعف وعنجهيتهم إلى صلاة وكيف أنهم لحظة المرض يخلعون رداء المكابرة على أبواب المستشفيات ليرتدوا لبوس الضعف والاسترحام.. لم تكن تتمعني مشاهد ضعفهم، إنما كنت أحس بها أقرب إلى الحقيقة... وكنت أقرب الموتى لحظة احتضارهم، والتقط لهم صوراً سرية.. ساعة الموت.. ثم

أجمعها مع صورهم وهم في كامل قواهم، وأضعها في ألبوم خاص،
وأسجل تحتها ما سمعته من هذيانهم..

دوى قصف آخر قطع عليّ تيار الوعي.. نظرت الى وجه الطفل
المحتضر.. وفجأة التمعت بفكري حقيقة أذهلنتني.. (لم أكن ألحظها طول
الوقت).. كان وجه الطفل المصاب بالتهاب الدماغ يشبه الى حد مخيف
وجه الطبيب وكأن وجهاهما يتواصلان في لحظة تكاد تفر من زمانها..

قبل الجندي زوجته وانطلق مسرعاً الى خط النار بينما هي تتضرع الى
الله أن يعيده لها سالماً، وأم الطفل كانت ما تزال في وجومها تكابد آلام
روحها المتصدعة.. قضينا الليلة واجمين.. وكان مرحلة جديدة من حياتنا
تتقدم ببطء

في الصباح.. وبدون أي مقدمات .. أسلمت أم الطفل الروح، أما
طفلها فقد فوجئت بتحسّن حالته.. ها هو يسترد حياته بعد أن كابد ليلة
هائلة، وحين فتحت المذياع كانوا يتكلمون عن هدنة عقدت بين الأطراف
المتحاربة... وجاء من يبشر الأم بنجاة زوجها وأنه في طريقه الى البيت..
وتوقف القتال..!

هرعت لأخبر زوجة الجندي.. لم أصدق ما رأيت، كانت جاحظة
العينين وقد فارقت الحياة.. كان وجهها يشبه تماماً وجه زوجها وكان روحه
قد حلت بها..

هرعت لغرفة الطبيب.. قرعت الباب.. ثم قرعت بشدة.. وبعد أن
كسرناه وجدناه يسبح في بركة من الدم بعد أن فصد شرايينه.. كان وجهه
نفس وجه الطفل القادم لتوه من مفازات الموت..

وقفت حائرة في ذهول لم أجرؤ على تصوير أي شيء.. كل ما عملته
في ذلك الصباح أنني كسرت آلة التصوير وقدمت استقالتي وغادرت
المستشفى...

مرت سنوات كثيرة بعد ذلك اليوم.. وكان في أعماقي هاجس
يلاحقني.. ما معنى كل ذلك؟ الموت والحياة ووجوه البشر.. وفي يوم من
الأيام أحسست بشعور غريب يدفعني إلى عنوان تلك السيدة.. مررت أمام
بيتها.. كان ما يزال مهدماً، وقد للممت إحدى الجرافات أنقاضه في كومة
عالية.. حولتها السنين والأنواء الى تلة صغيرة.. وكان قد نصب على
مدخلها سبيل ماء كتب عليه (هذا لوجه الله تعالى عن روح كل شهداء
الحرب الأخيرة).

وكان هنالك مستنقع من المياه الزرقاء.. يحيط بالمكان، يعج بطحالب
لا لون لها، تحاول أن تتسلق تلك التلة، فتتهافت منزلقة الى عمق منبتها...



أوراق الاوكالبتوس

قرص الرادار ما زال يدور كطائر أعمى يبحث عن اتجاهه، رائحة رمال البحر تأتي مع العاصفة فتعقب في أنفي.. جسدي ينز بقطرات دماء أشبه ما تكون بأموج التاريخ، حارقة متقطعة... قائد السرية يتطلع اليّ بنظرات حيرى ويربت على كتفي بانتظار الطبيب، بينما أسرع أحدهم الى خيمتي ليحضر لي أوراق نبات يعالج بها جرحي.

وجه أمي الطيب بممزرها ورائحة دمشق تنبعث في أعماقي، ترسم صورة كاملة لحاراتها القديمة، وأزقتها.. وصوت الماء المتدفق في بحيرات البيوت وعلى شوارعها الضيقة يقطر في قلبي... ينزف قطرة قطره تدفق من سراييني.

انظر الى جرحي.. وأتأمل الصحراء الجافة التي يخيل لي أنها سترتشف دمائي.. وقرص شبكة الرادار الذي يدور كأذان الخفافيش يبحث عن شيء ما، ثم أستم رائحة الياسمين المنبعث من بيتنا العتيق ممزوجاً مع زهر النارج ثم أرى طيف أمي تغدو ذاهبة آية تشعل الموقد وتضع عليه بعض الخبز والبخور فتنتشر رائحة طيبة تمتزج مع صوت أبي الذي يؤذن في (مئذنة الشحم) القرية يحرق رعدة في أوصالي وكأنها لحظة البعث فأنقلب في سريري.

- الله يرضى عليك يا ناجية عودى الأولاد على الصلاة.. صلاة الصبح باكراً.. (ركعتا الصبح خير من الدنيا وما فيها). وتسقط أول زهرات الياسمين على الأرض تشق غبش الفجر تعطر صوت أبي وتسلل إلى الحارات العامة تبعد منع التجول الذي فرضه الفرنسيون.

- قلت لك لا تنسل مع الفجر يا رجل فممنع التجول مفروض في كل أرجاء دمشق

- سيحمني الله يا امرأة إنني أؤذن للصلاة والمؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ولن نحصل على الاستقلال إلا بالعمل والايمان.

ويطل أبي بعد غيبة أكبر من أن تكون لصلاة الفجر، ويظهر على مائدة أمي المزهرة بالجبن والزيتون الدمشقي.. بينما أنهض وإخوتي بثياب النوم المصنوعة من الفانيليا، ونتسابق الى بركة الديار نتبارى في أيام الشتاء من يكسر طبقة الجليد الهشة، ويعب من البركة لتوضأ، ثم نقف في الصلاة خاشعين. وتنبعث رائحة الشاي المعد بواسطة السماور من غرفة الجلوس ممتزجاً برائحة الاوكاليتوس* التي تنعش البيت، بينما تنهض أختي مثل قطة تتمسح بجدران البيت لتلحق بنا. ونقف في انتظار أبي خلف الباب فيظهر رجل طويل القامة يرتدي الطربوش والسرवाल حاملاً معه نسيم الصباح الذي تسلل عبر قناطر الحارات الدمشقية مبشراً بيوم جديد من النضال.. بينما يلهج لسانه بالتسبيح وتضغظ أصابعه على حبات المسبحة وكأنها أيام دمشق المنصرمة. ونسرع مثل قطط نلتف حوله ونقبل يده في صف منتظم ونصطف لنسمع السؤال المعتاد:

- هل أدى الأولاد صلاة الصبح؟

- الحمد لله اليوم حامد أم بنا في الصلاة.

- والبنات؟

- صلت معنا..

- عما قريب سأحجبها لتكون من أهل التقوى.. كيف لنا أن نتنصر إن

* نبات ينمو في اقاليم البحر المتوسط تستعمل أوراقه لمعالجة الجروح.

لم نتق الله..؟! ونسير خلفه لنتلف حول المائدة ذات الرائحة الطيبة كحقل لوز في موسم الربيع.

- هل ما زالوا يشددون على الناس...؟

- بالأمس نزلت قبيلة على حي (الكلاسة) وأحرقت حارة كاملة وقيل أنه قد قتل جندي فرنسي.

- لا بد أن تزداد المقاومة...

- ليس لنا سوى الايمان والحجارة.. لقد اعتقلوا أبا صبحي... وتابعنا الطعام بوجوم حزناً على الحارس أبي صبحي ذي الوجه الطفولي الذي كان يؤنس الحارات بناره التي تشتعل ليلاً فتطرد الساكونة والشياطين التي يحذروننا منها.

تمتد يد أخي الصغير الى وعاء الزيت فينقلب الصحن مبللاً يديه وأصابعه.. بينما تترك أمي طعامها لتحضر خرقة تمسح بها الأرض.. وتوقف في منتصف الديار على صوت طرقات على الباب.

- لقد أتوا.. ماذا يريدون؟ وتحقق في خوف بوجه أبي، وقبل أن تلتقط أنفاسها كسروا الباب ودخلوا...

أنت المؤذن..؟ تعال معنا... يصيح الجندي بصوت ذو لهجة قاسية ويسرع أخي الصغير ليختبئ خلف أمي التي سحبت أقرب غطاء ووضعته على رأسها.. ويتطلع أبي باتجاهنا.. ثم إليهم ويسأل: ماذا تريدون؟

تعال معنا الى مخفر العمارة وهناك ستعرف ماذا نريد...

وتدرك أمي سبب اعتقاله.. ونفهم نحن سبب تأخره بعد الأذان وعيسيه بالليل مع الرجال.. ويغيب طويلاً.. ثم تأتيها أنباء غامضة ويسافر مع الرجال الى الجبال... وتدير أمي شؤون البيت بينما ترتدي أختي المايول الأسود وتذهب الى سوق الخضار لتأتي بالسلال المحملة فتنوب مكان أبي وتحزم السلة يدها ويدهامها مطر دمشق الغاضب.. ولا يأتي أبي.. وفي

طريقي للمدرسة المح الثوار يختبئون في الأزقة والطرق... .

- احترسي يا ابنتي أثناء إحضار الطعام...

- لا يا أمي إن الثوار يساعدونني في العبور.

مضت أيام وأصيب أخي الصغير بحمى التيفوئيد.. وصار يهذي.. يومها ذهبت اختي تبحث عن دواء في الصيدليات أو محلات العطارة.. أمطرت عليها كما لم تمطر من قبل.. وعادت ترتجف وهي حاملة سلتها التي حزت يدها.. فكادت تدمي.. كانت ترتعش مثل قطة مبللة.. وبعد أيام أصيبت بعدوى التيفوئيد وصار البيت موبوءاً.. ثم أتى من يحقن الحارة باللقاح ضد هذا الوباء.

وبعد أيام أتى من يخبر أمي شيئاً، فأعدت فراشاً وجلست تنتظر، وخيم المساء بينما المريضان يهذيان تحت تأثير الحمى.. سمعنا طرقاتاً ثم دخل الرجال يحملون أبي على أيديهم، كانت ساقه ملفوفة، ولم نصدق ما نرى.. نهض أخي واختي من فراشيهما يستطلعان الأمر.. وبعد أن جلس الرجال قليلاً.. انصرفوا.. وحين تطلعنا لوجه أبي الشاحب طرق الباب من جديد فقد أتوا له بالطبيب الشعبي الذي نصحه بأن يغلي أوراق الاوكاليتوس ويضعها على ساقه المتوردة.. ثم كشف الطبيب عن ساق أبي صعقنا لمنظرها وانخرطنا جميعاً في البكاء.

- لا تحزني يا نجية لقد كان حادث مشرف.. فقد سقط صندوق الذخيرة على رجلي.. وحملني الرجال لمسافات وأنا أنزف.. ثم قرر الطبيب بترها.. في البداية خفت ورحت أتوسل إلا أنني بعد ذلك استسلمت وتركته يقطعها، كي لا يصاب جسدي كله بالغرغرينا.. سأتابع يا نجية.. فقد بقيت لي رجل واحدة، سأطوف بها في أنحاء دمشق.. أدق على بيوت الناس أسحرهم.. وأؤذن وأقف على نهر بردى.. وأتمشى على فروعه السبعة، وتخيلته كيف سيصعد درجات المئذنة برجل واحدة..

وكيف سيرتفع صوته الجميل مردداً الله أكبر...

تصعد القتال... وصارت أمي تخدم زوجها... وافتقدنا صوت أبي
الجمهوري في المثذنة والتراحيب التي يرددتها قبل الأذان..

ومع فجر منتصف نيسان بقليل.. تنفست دمشق تحت سماء قاسيون،
وصارت المرجة ساحة للرقص والفرح بعد الجلاء... وفي سوق الحميدية..
فتح التجار مخازنهم ووزعوا الحلوى والكنافة.. وعادت رائحته تعبق
بالعطارة، والقطن المندوف والبوظة الدمشقية.. والحريز الدمشقي.. يمتد في
الطريق، وسجاجيد الصلاة.. ونزلت الشمس تمشط جدائل الغوطة حيث
تفتح زهر اللوز والمشمش الحموي.

قرص الرادار ما زال يدور.. يلف بحمق والرمال تلسعني تدخل جرحي
فأشعر به كالمح يحرق كل حياتي التي أوصاني بها أبي قبل موته قائلاً:
يا ابني الجهاد والصلاة..

وخرج نعشه بين الأزقة وصلّى عليه الرجال في المسجد الذي كان يؤذن
فيه وبقيت صورته في منتصف الحائط تهتف بين حين وآخر...:

(يا بني.. قبل البدء بأي شيء عليكم بالصلاة).. وقبل الالتحاق
بالجبهة صليت.. لكنني أصبت.. وبدلاً من أن أفتح عياني على الجولان
اشتممت رائحة البحر المالح ورمال الصحراء... وكنت قد حملت
معني بعضاً من أوراق النارج والأوكاليتوس.. لتذكرني ببיתי وبدفء
النضال...

صعدت الى ظهر الدبابة.. ألقيت نظرة حرة.. امتدت الصحراء أمامي..
ظهرت أمي بمزرها الأبيض وحرارات دمشق من خلفها واشتممت رائحة
الأماكن العطنة وأسواق دمشق العتيقة امتزجت بعبير القدس وحراراتها
القديمة وباعة الحلوى... والدكاكين ذات الأقواس المنحنية.. لمحت المسجد
الأموي والأقصى.. سمعت هتافاً يرتفع: الله أكبر...

وحين اقترب الجند لاعتقال أبي لمحت بينهم اليهودي العتيق الذي كان يأتي الى الحارات يشتري الأنتيكا.. كان هو الذي وشى بأبي.. الآن ألمه يتجول بحارات القدس... ينحني طفل يلتقط حجراً... من أرض القدس... ويجواره طفل آخر كان قد حمل الحجارة يوماً في أرض دمشق..

يصير الحجر زهرة تفتتح على أسوار المدينتين...

أطلع من قمرة الدبابة ألمح القدس تناديني.. تبتعد عني رائحة الصحراء... أسرع في مسيري أسمعهم يندرونني.. أهذي أعطي اشارات للقائد... سيدي إنني أتجه الى القدس...

- توقف.. يأتيني صوته عبر اللاسلكي...

افسحوا لي المجال لم يبق سوى خطوات هنا أذنا ألمح الجنود العرب كلهم خلفي... ألم تكلفني أن أفود السرية بالاتجاه الصحيح...؟

- توقف

لقد أصابه مس... إنه مخبول

انطلقت بدبابتي.. سأحترق الآن كل الحواجز، وأعبر الى القدس.. تنقلب الدبابة يطل وجه أبي... الله أكبر... يردد صوته على مآذن الشحم... لا بل على مآذن المسجد الأموي... والأقصى والمسجد النبوي.. دمي ينزف.. انتهت العملية.. أحمل جريحاً الى خيمتي.. أحد ما ذهب يحضر شيئاً ليضمد جراحي، ويأتي حاملاً بعض أوراق الصبر... اعصروه على الجرح يتوقف التزيف.. وأهتف... لا.. أحضروا لي ورق الأوكالبتوس.. إنه يرقى جراحي.. أما الصبر فلن يوقف التزيف، إنه يرهل الجلد يغيره...!

لا يوجد هنا أوكالبتوس.. ولا ورد جورى بل صبار وأشواك تعمر

القلب...

الأشواك تملأ جراحي.. لا يثبت الأوكاليتوس إلا في المدن العامرة..
دمشق، القدس... أمد يدي لأقطف منه ورقة... لكن يدي كانت قد
بترت...!!



الموت الأصفر

الليل ساكن وحزين.. الشوارع خاوية إلا من غربة مستوطنة تعزف لحنها بين البشر، غرفة الكاتدرائية قائمة وحزينة... لا شيء سوى أشجار البلوط المحنية الظهر، تنوح أغصانها على النافذة تنعي معنى الخلود الميت الذي نلبسه إياها ثم نمارس الدمار... صوت عقارب الساعة يلاحقني، يعطي نبضاً يجعلني أتقدم ثم يأتي نبض آخر غريب ووحيد يدفعني للتراجع... مئات الوجوه الحزينة من البشر أراها تطل كاسفة عبر قضبان الكاتدرائية، تحاول التلصص لمعرفة جثث قتلاها، بعدما توالى الجثث عبر أكياس النفايات البشرية.. يا للفضاعة انسان يعيش ويحب ويفكر يصبح مجرد نفاية بشرية يعلبونها بأكياس النايلون، مجرد أشلاء قدم أو كتف ووجه مهشم، وعلى كيس النايلون تثبت الرتبة كولونيل... مارشال..، وأنا أعبر وسط تلك الجثث، والناسك الذي يلحق بي من أجل الصلاة على الجثث أشعر ذاتي أتقيأ بينما النبض الغريب يلاحقني، وقد قررنا أن ندخل الكاتدرائية بعيد منتصف الليل كي لا تلحظنا أسر الضباط المقتولين، لكنهم تسللوا الى الكاتدرائية وكانوا قبلنا.. ثمة وجوه تحديق من خلف أكياس النايلون، تشبه تلك الوجوه المظلمة على الزجاج، لا فرق بينهما وحتى نظرة الفزع المرتسمة على الوجوه المهشمة، واحدة تشبه تلك المظلمة من خلف الزجاج، خلسة أمد يدي لتصافح بعضهم يا لرعيي.. ثمة أيدي ما زالت حارة تحاول أن تشد على يدي وبعضها تنزف دماء تلتطخ وجهي، في الخارج تمتد الأيدي متوسلة لعلها تحظى بجثة قريب أو حبيب، لكن القائد الأكبر يصر بوجهه المتفرد أن نتجاهلهم ويأمر بإرخاء الستائر السوداء لتبدو سميكة..

بيننا وبين البشر.. بعد السير لمدة ساعة بين الجثث بدأت أخلط تماماً بين الحياة والموت واعتقدت ذاتي أنني جثة أخرى نهضت من بين الأموات، لعلني مجنونة أتوا بها قامت تبحث عن أشلائها.. أه هذا الوجه أعرفه وهذه اليد، إذ قبل بدء الحرب كنت أعمل في مختبر أبحاث (الأجيال القادمة السعيدة) الواقع في الطابق العلوي من الكاتدرائية. وقد أصّر بعض الجنود أن نأخذ منهم بعض الحيوانات المنوية التي نقوم بتجميدها واستعمالها فيما بعد وأحياناً كنا نحمد أجنة صغيرة.

كنت أرقبها يوماً هذا العقيد المصغر، ذاك الرائد، والمجد لكن لماذا كل ذلك وكانت وصية كل أب لطفله القادم أن يبحث عن السلام وكنا نكتب وصية كل منهم على أنبوب صغير حتى إذا كبر الجنين قرأها.

«يا لسخف الانسان يبحث عن مستقبله ويدمر ما به من حاضر...» قلت في نفسي.. وكنت أرقب الأجنة بعين، وبعين أخرى أتابع أخبار الجنود والمعركة.. حتى صرت ألعب لعبة مسلية.. ماذا لو أن العالم صَغُرَ وصار بحاجة لمساحة قدر المختر.. ألا تكفي لمثل هذه الأجنة للعيش بسلام، ويكفوا عن التناحر واستلاب الأرض...؟

تابعنا المسير والبحث وسط الجثث رائحة الكاتدرائية رطبة، ثم طحالب سوداء تنمو على جدرانها، وفي مقدمة الكاتدرائية صورة للمسيح المصلوب وعلى الجانب الآخر صورة الحرب للفنان غويا.

أتطلع في وجه الراهب الذي انحنى للمسيح ورسم صلواته وصلبانه بينما يقف الكولونيل متأملاً وحشية القتل في صورة غويا وهو يهتف لنفسه..

يا لفظاعة الانسان انظروا للحرب الإسبانية كم كانت بشعة..

وكدت أهتف سيدي.. ولكن، الآن ماذا عن الحرب المشتعلة.. لكنني وجدت ذاتي أتهم الصمت وأنه لا صوت لي، وعاد شعور آخر يساورني

انني واحدة من الجثث الميتة، وأن هذا كابوس يجري أمامي وزاد من رعبني أنني بدأت أرى الدم يشخب من رأسي ووجهي، وبدأت الأشلاء ترقص أشباحاً أمام ناظري بينما لمحت أجنة المجندين ترقص في أنابيبها متوعدة في وجهي، آه إنني أشعر ببرودة المكان القاتلة ورائحته العفنة ورائحة الجثث، لو تنهض جثة وتحضني أو يد ميتة تشد على يدي، وأتوقف أمام كيس نايلون أنيق إلا من الدم الذي يتفشى على جنباته وأقرأ:

ميجر (ميكل) لا يفاجئني وجوده هنا بل يفاجئني لو عاد الى المخبر سالمًا وقال إنه حي بعد هذا الدمار... ميكل.. بشعره الأشقر، وعيناه الزرقاوان، بقامته الطويلة المسروقة من القمر.. حين جاء الى المخبر يطلب تخليده، ووجدت ذاتي أقتنصه، رجل مثل هذا هل يحتاج الى خلود...؟ لا لن يقتل في المعركة أليست المعركة لقتل الملوّنين..؟ والضعفاء (هذا ما تنادي به أميركا)... وكأنه فهم أعماقي.. ووجدت ذاتي أخرج وإياه في البراري.. ذهبنا إلى حيث منطقة نائية إلى حيث أرض ذهبية من ورق البلوط المتساقط، ورغم كرهى للموت، إلا أنني عانقت ذلك البساط الذهبي من الأوراق المتساقطة وشاهدته يحمل كومة من الأوراق يلقيها على عشب نابت تحت شجرة بلوط خضراء حية، وهناك أودع بذرة حياته في جسدي الغض.. وهو يردد:

«سأرجع من الحرب لتعقد صفقة حب بدلاً من الحرب وسأجد طفلي حياً في جسد حي بدلاً من الأنابيب التافهة».

ومن الصحراء كتب لي:

«لا يوجد فرق كبير بين العالم الغربي والعربي.. فصحراؤنا الخضراء ليست أجمل من صحرائهم البنية، وأحلام الإنسان هنا تشبه أحلام الإنسان هناك، حتى آمال الجنود، إنهم مثلنا يحنون للسلام وللبيت وللعائلة.. لكن ثمة ألعاب كبيرة، وألعاب شيطانية تمارس باسم الشعوب، وباسم عبارات

جوفاء فارغة وثمة أرباب للشياطين يقودون الشعوب نحو الهاوية.. عندما
ستتهي الحرب سأترك الجيش لأعيش معك ومع طفلينا الذي سيكون
تاريخنا.. صلى من أجلنا» ولم يرجع أبداً...

صوت الساعتين ما زال يتلاحق، وفي الطابق الأعلى حيث أقيم معهد
الأبحاث للتمويه.. أرى أن الأجنة القزمة قد صارت أشلاء ميتة، وأن
الأنابيب التي نحضنها بها ما هي إلا أكياس للبقايا البشرية.. ما الفرق؟ أليس
العالم كله وجهان لعملة واحدة؟ ها هم يقيمون معهد الأبحاث المتطور
وأفضل منه مباشرة محرقة لجثث الجنود.. وباسم السلام يمارسون أكبر
عملية للقتل... وباسم الأديان يكتبون أوسع زندقة وإلحاد...

لوحة غويا أراها تقطر دماً، ومن قلب المسيح ألمح فيضاً من الدم، ثم أجد
يديه تنضمان ليصير جسداً واحداً أرى فيه جسد محمد يحمل رسالة
واحدة تكمل رسالة المسيح. من بعيد ألمح الخضر يقتل التنين لعله التنين الذي
صار هكذا من القتل والتدمير الرابض في أعماق كل منا...

الكولونيل يتقدم، ويتوقف عند جثة مشدوهاً ثم ينادي ونهرع إليه..
انظروا.. ويفك كيس النايلون.. قبل أن يفكه ألمح وجه مايكل.. وجهاً أبيض
وعينان زرقاوان لكن ما إن يفكه حتى يظهر وجه جندي عربي، وملابس
عربية ورتب عربية، ويشهق هل يعقل أنه أتى بالخطأ إلى هنا.. هل كان
أسيراً.. كيف شحنوه إلى هنا..؟ لعل بعض قتلانا ظلوا هناك..

ويهتف الراهب لا.. دماؤهم ستروي الأرض هناك.. أليس العالم كله
بقعة واحدة والبشر واحد..؟ ويهتف الكولونيل يا للفضيحة.. والعار هل
ندفنه هنا في أرض أميركا..؟ ويعلو صوت الساعتين المتضادين.. يحاول
النغم الهادي أن يطغى على الرتيب.. أنا ما زلت مصابة بالصمت. سوى
نبض جنين مايكل في أحشائي.. أسمع لأول مرة يتواتر مع نبض الأجنة في
أنابيب الاختبار في الطابق العلوي.. لعل صوت الساعة هو صوت
قيامتهم..؟ ولعله نبض قلوبهم يا إلهي.. أين نحن في سراديب الموت
والدمار.. نحاول أن نصنع من القذارة والقتل أسطورة تمجيد وكرامة

وملحمة للشعوب خالدة ومهزلة أرضية هائلة...

وأطلع فيما حولي... يا إلهي وجه الكولونيل بعض من دراكولا لماذا أظعته..؟ لماذا نصبته دليلاً على ذاتي..؟ وسرت خلفه حتى ولو لخطوات..؟ أستنجد بالراهب لماذا سكت على الكولونيل.. لماذا سرنا في السرداب المظلم نحمل شمعة واهنة انطقات في أول الدرب.. وحتى أنا تواطمت معهما وسرت في درب مخجل أواسي ذاتي.. إنني حملت بطفل حي لا صناعي في أنابيب التجربة.. ووجوه الشر في الخارج لماذا صممت عن المسرحية.. لماذا لم تكسر النوافذ وتدخل تمزقنا تمزق المجانين الثلاثة الذين نمارس لعبة الوصاية، والخلق والفناء.

وحتى الموتى لماذا لم يمزقوا أكياس النايلون ويصرخوا. لماذا لم يحتج العالم.. وحتى الأجنة التي في الطابق العلوي من قال لها أنها ستعيش بسلام ورخاء وعالم بلا سلاح وهي نتاج أبناء حرب..؟

حتى من قتلوا وشبعوا موتاً أراهم ينهضون من قيامتهم ليساهموا في قتل أخير، أليس هذا الوجه البشري الذي خلف كيس النايلون رجل من اليابان؟ أليست تلك البقعة الشوهاء بعضاً من هيروشيما..؟ هل سادية القتل تتفجر في الانسان..؟ دعونا نصلي على موتانا يهتف الراهب..

لكن أعماقي لم تصمت وصوت عقارب الساعتين المتضادتين يدمر بعضه..

يقترب من أحد الجثث لينتزع صليباً من رقبتة.. صليب ذهبي - لعله أغراه الذهب المتدلي من رقبتة. آه ثمة انفجار مدوي ويصرخ الراهب.. الذهب الصليب مرتبط بلغم في جيب الميت.. الدمار امتد شمل المبنى.. دمر الأجنة القادمة.. ووجوه الناس المرتقبة والجثث الميتة والكولونيل وأنا.. في الغد نبتت شجرة موت أصفر يابسة وانكسرت عقارب الساعة...

١٩٩١/٢/٢٣

الجنرال

عندما انتهت المعركة كان المساء كئيباً وسط الأشياء المبعثرة، وصوت المذيع الذي يعلن عن التراجع وعقد هدنة بين الأطراف وتوقف القتال. لم نتنفس الصعداء.. ولم نفرح إذ أن الخوض في معارك قاسية لا تميز بين الحياة والموت تحول الانسان إلى شبح يدوس على مئات الجثث والضحايا التي تشده بعنف لينام نومتها بينما تتفسخ الأجساد وتنتفخ وتصعد رائحتها النتنة.

كان الجنرال آخر الضحايا.. وكان من الضروري أن نعبر بجثته عبر نقطة تفتيش العدو دون أن يتبهوا الى حقيقة شخصيته وإلاّ صادروها ومثلوا بها.

وكان موته مفاجئاً لنا إذ كنا متمركزين في قلعة متينة، وكانت قذائفنا تنطلق قوية مقهقرة جيش العدو. وفي الفترة الأخيرة تناقصت الذخيرة والغذاء، وبتنا محاصرين في المواقع نستمع لأوامره العنيدة دون وجل منه أو تراجع واكتشفنا أن هنالك سلحفاة نبتت من أحد الشقوق وكانت تحوم وحيدة ترقبنا.. عندما تسمع صوت الجنرال ملعلعاً تختبئ في صدفتها مخفية رأسها ويديها، ثم تعاود الظهور واللف من حولنا.. وعندما كان يهدأ القصف ليلاً إلاّ من بعض الطلقات الحمراء التي تنبئ بوجود مواقع الجيش كنا نجلس نتسامر.

في احدى الليالي خطر ببال الجنرال أن يحضر شمعة ويثبتها على ظهر السلحفاة ويضيئها، والتي أخذت تدور على نفسها راسمة أشكال أشباح على جدران القلعة وكأننا أشخاص افلاطون في كفهه المثالي لفنا صمت

طويل.. وابتدأنا ننظر في الوجوه الشاحبة القلقة، ثم احترق الصمت صوت أحدهم مردداً: ترى متى تضع الحرب أوزارها ويفك الحصار ثم ردد الثاني وسط تنهيدة طويلة إن القلعة المظلمة وأشباحتها الظاهرة تشبه كهوف العصور الحجرية، وتساءل ماذا لو أن البشر قد فنوا جميعهم؟ آنذاك يجب أن يبدأ رجل وامرأة وتخيلنا صورة رجل مثل انكيديو وامرأة يتضاجعان بينما تتوالد ظلالهما على جدران الكهف مولدة بشراً آخرين.

وتحدث جندي بلهجة حزينة ساخرة عن علاقة كانت بينه وبين إحدى نساء العدو وقد كانت حبلى، وظل ينتظرها حتى تضع طفلها ويقترن بها، لكن في حمأة دخول جنوده إلى القرية وخروج النسوة إلى الشوارع، أطلق عليها وعلى غيرها طلقات حولت النساء إلى لحم معجون بالدماء.

تصاعدت رائحة التبغ والعفونة ذكرتنا بالمستنقعات التي كنا نلقي بها بجثث الناس، فنفطو وسط نقيق الضفادع المحتجة، وكأنها تتوعدنا بعالم آخر نلتقي به ويصفي الحساب.

تطلعنا في وجه الجنرال كان ساكناً وصمت مهيب يلفعه، كان من أثرها المدينة حتى أن مصاعج زوجته ومجوهراتها كانت موزعة في بنوك عديدة، وكنت أعمل مرافقاً له، إذ كثيراً ما اصطحبني معه حتى في أكثر مشاويره السرية.

قبل بدء المعركة بيوم واحد اصطحبني معه في زيارة غريبة، إذ حسب علمي أننا متوجهان إلى أحد البنوك التي يخبئ فيها أمواله وأشياءه الثمينة دخل إلى المبنى تحدث إلى أحد الموظفين ثم اصطحبنا عبر ممرات طويلة، كانت عيون الموظفين ترمقنا بحسد.. سرت خلفه من سرداب لآخر، ثم هبط أحد الأدراج المعتمة وتوقف أمام باب خزانة حديدية وشبك كبير أشبه ما يكون بأبواب السجون، أخرج الموظف المفتاح وعالج الباب الذي انفتح ودخلنا إلى غرفة أنيقة مملوءة بالصناديق الحديدية، أخرج الجنرال مفتاحاً

ذهيباً ثم تقدم من صندوق حديدي يفتحه بيما راح قلبي يخفق فرحاً بما سأراه من مجوهرات وكميات هائلة من الذهب، وفي سري ظننت أنه سيجعل مني وصياً على أمواله حيال زوجته وأطفاله بعد موته.

دخل خلف ستارة مخملية أنيقة ونادى عليّ كان هنالك مرآة جميلة انعكس فيها وجهه وهو يعالج الصندوق، ثم فتحه وطلب مني الاقتراب أكثر.. كانت قطعة شاش صفراء عتيقة ملفوف بها جسم غامض وخلت أنه يلف الذهب خوفاً عليه من التلف، طلب مني أن أفتحها.. أمسكها كانت صلبة بدأت بفك ربطتها.. بدأت أشعر بجسم صلب، وكلما حللت الربطة شعرت بأني أوغل الى عالم قديم باهت، فجأة ظهرت أمامي أصابع صفراء بشرية كدت أراجع لكنه تطلع اليّ بنظرة أمرة، وتابعت العمل حتى ظهرت أمامي يد مبتورة من الساعد، انطلقت مني شهقة أوقفتها نظراته الحادة تخيلتها في الليل تدق على كل الصناديق والأبواب المقفلة..

أمسكها بين يديه.. قلبها.. صافحها ثم أعادها الى مكانها ولفها في قطعة الشاش، ثم أغلق الصندوق، خرجنا وكأننا نسير في موكب جنائزي بعد أن هدا من روعي جلسنا في بيته نحتسي الشاي تحدث لي قائلاً لقد خضت معارك كثيرة قتلت من الأرواح البريئة ما يقشعر له البدن حتى خلت نفسي سيداً للموت أقف وسط معركة الخراف إذ أن من يقتل مرة يستمرىء الأمر.. وتصبح الحياة بالنسبة له شيئاً مقيتاً إلا وسط الدماء النازفة.. ومعها تتلبد الأحاسيس وعامة الناس يصفقون له ويلقبونه بطلاً.. ويتعري الذئب الكامن في أعماق كل منا.. وفي إحدى المعارك دخلنا قرية آمنة، كان هنالك شيخ عجوز يفلح أرضه ويرم الدمار.. ويني ما تهدم من البيوت بصمت.. شعرت بإكبار له ممزوج بالحدق، وطلبت من الجنود أن يحضروا لي أفضل من في القرية.. أحضروا المختار وجدته شخصية ثرثارة توهم البسطاء بأهميتها بينما هي تقود الخراف، احضروا أستاذ المدرسة..

وجدته هيكلأً مثبأً في إطار من العلم غير مجد.. أحضروا شاعرها وجدته
حالما مأفوناً يعلق قصائده على أشجار القرية..

وحده الفلاح العجوز من ظل يورقني.. حتى خلت أنه يزرع حكمته
في الأرض لتنبت أشجاراً من التعقل لتنبت في عقول الناس، كان وجهه
يمزق أعماقي.. أقارن بين شبابي القدر وشيخوخته النبيلة.. وتبعته الى حقله
وأنا أنظر العرق يتصبب منه حملت مسدسي.. ناديت عليه. لم يتطلع إلي..
أطلقت رصاصي.. تعفر في التراب.. وسقط ميتاً وعلى وجهه بسمه
ساخرة حطمتني.

اقتربت منه طلبت من الجنود أن يجزوا يده.. حنطتها واحتفظت بها..
كلما أردت الدخول إلى معركة ذهبت أنظر إليها فأتمثل الصراع في
الكون.. ومئات البشر القادمين والحرب القادمة، بينما ظلت حبات من
التراب عالقة بها وكأنها أقوى مني.. بعدها دخلنا المعركة، في الصباح
اكتشفنا أن السلحفاة قد قفزت من القلعة وتهشمت، وظلت أشعة الشمس
تأكل من لحمها حتى ظهرت صدقتها مجرد قطعة عظمية فارغة، مضى
النهار كثيباً وسط مزاج الجنرال السيء والذي ما أن حل المساء حتى دخل
في هذيان وحمى مفاجئة، وكان القلعة تعج بمئات الأرواح والأشباح..
وكان يتخيل أيادي تمتد لحنقه حتى إذا اشتد الظلام واشتدت كوابيسه
أرخصي رأسه ومات وحيداً.. وظهرت أمامنا مشكلة كبرى وهي تمرير جثته
دون أخذها من قبل جيش الأعداء إذ أن القيادة تطالبنا بجهته. واحتارنا فيما
نفعله ثم اقترح أحدهم أن نقطع رأسه ونجوف أحشائه ونحشوه هناك فيعبر
مع جثث الموتى على أساس أنه جسد بلا رأس وأن الرأس تطاير دون أن
ندري إلى أين..

وبدأ الجراح يعمل.. فتح البطن.. ثم أخرج الأمعاء واقترب من الرأس
ليجزه.. كنت خائفاً وتساءلت هل الجراح بطريقة أو أخرى جزار آخر..

أصابني القرف.. أمسك الرأس جففه من الدماء.. ثم وضعه داخل البطن..
وقفنا جميعاً وسط الطابور.. أدينا التحية له وتخيلت أن هنالك يداً تؤدي له
التحية ملفوفة بالشاش أمام نظرات عينيه القاتلة.

حمل الجراح الأمعاء ليعطيها لأحدهم ليقوم بدفنها وهو يردد يبدو أن
هنالك خطأ واضحاً ما بين مكان الرأس والأمعاء عنده.. إذ أنها منتفخة..
بينما الرأس ضامر.. وفي نفسي تساءلت هل كان مثل ذلك يصلح أن
يخوض المعارك ويلقي أوامره.. أم أنها شهوات كانت تحمله وتعطش للدماء
لكل ذلك القتل.. بعد الحصار اتجهنا عائدين نحمل جثثاً كثيرة.. عبرنا
نقطة الحدود صعد الجندي، فتش جثث الموتى.. تطلع الى جثة منتفخة ثم
سأل أين الرأس؟

اقترب أكثر وهتف لكن ما بال البطن منتفخ وصاح بدهشة يا إلهي إنها
الديدان تخرج منه.. هتف الطبيب حقاً لقد خرجت من مكانها الطبيعي..
لم أعلق.. تخيلت كل المعارك التي خاضها كانت قاسية جداً، تخيلت
الأوامر التي كنا نتلقاها بتدمير مدينة وكأنها مجرد دودة.

لم نعلق شيئاً.. تطلعنا الى الجثة.. بصق الجندي وهبط الى مكانه.. أما
نحن فقد تابعنا السير الى أرض جديدة نحمل الجثث وأنا أفكر في اليد
المخبوءة في الصناديق الحديدية وعما جرى لها.. وأمامي كانت مساحات
شاسعة من الحقول تتمايل فيها غرسات نبات عباد الشمس.



سفينة السلام

أمواج المياه تتلاحق تتبلع ذاتها مثل عمر الكون، صوت السفينة يرتج عبر المياه يعطي صوتاً بلا إيقاع، أو صدى يتلاشى في البعيد خلف عباب المياه... والسفينة تبحر إلى نقطة مجهولة، مثل إنسان يتيه بحثاً عن ذاته الحقيقة.. قبل قليل أنهيت صلاتي.. وقبلت صحائف كتابي المقدس، ثم ودعنا المدينة التي لم يبق منها سوى طيف أضوائها بينما اندثر ضجيجها وحديث أناسها وصوت ساكنيها ومشاكلهم وحياتهم.

دخان السفينة ينفث من المدخنة، ثم يتبدد مثل عمر عابر، بينما أضواؤها تنعكس على البحر تعطي ضوءاً قرمزيًا.. بعد قليل سترسو في مينائها، ويتجمع أطفال جياع في انتظار الحليب بينما أترك خلفي في القرية حيث عملت راهبة وقابلة في أحد الأديرة، وقد نذرت نفسي للصلاة من أجل الرب وخلص الأطفال.. ثمّة طفل يشبه أحدب نوتردام.. يلاحقني بقامته القصيرة.. وحديثه ويده الكنعاء.. وخطواته المبعثرة التي ما إن مررت بها في القرية حتى أدركت أنه كان هنا، ثم اختفى.. وحتى عندما توقفت يوماً أرقب جمال شجرة رمان بما تحمله من زهر الجنار.. صفعني رؤيا قدميه وخلته خلف حائط يتربص بي.. ثم هرولت الى الدير وغرقت في الصلاة ودققت الناقوس، كان أهل القرية يدركون أن حدثاً ما يجري دون أن يعلموا أنني أنا من هي طريق خلاصهم في الحياة وبعد الممات. أعماقي تضطرب، وعينا الطفل المعتوه تطارداني تطلب خلاصاً من حياة أدخلته إليها عنوة.

منذ بدأت السفينة رحلتها وأنا أعاني اضطراباً أصلي في الليل وأخشع في النهار وعندما فارت دفتها الميناء شعرت بزلزال فصل كيائي عن اليابسة والناس والبشر.. حتى خلت أن السفينة هي جزء مقتطع من الزمان والمكان لا قرار لها.. لعلها خلقت مثل سفر التكوين أو لعلها بعد الدوي الهائل استقرت هنا، يتلاطمها الموج والظلام...
في أعماقي صلاة..

في اليوم الأول لم يبق سوى الأزرقين الماء والسماء.. وثمة بحر غامض الأسفار كان يخدم المسافرين بصمت وكأنه يسمح خطاياهم... وفي الليل كان يتحول إلى شجرة مسك بيضاء إذ ألمح على متن السفينة وسط الظلام بملابسه المصنوعة من القطن الأبيض ورائحة المسك التي تنبعث من جسده فحبيي عمراً كان في ثم انقضى.. والأضواء التي خبت من قبل.. بعد أن هدأ الناس وهجعوا في مخادعهم، صعدت أرقب الليل وصوت الهدير.. والنفوس المشرببة إلى المجهول ترحل الى هناك حيث الأطفال وحيث حاجز سلكي يلفح رقابهم الغضة.. وأسلحة المتاريس.. وقنابل الموت.. تبعته الى حيث رحل وهناك وجدته نائماً قرب مرجل النار.. ولما سأته قال: هنا اليقين بين الماء وبين النار... ووقفت للحظات خاشعة أستمع سفير النار وهدير الماء وهما يمتزجان في تناغم تلقائي.. وظل الصوت ينوح في أعماقي بعد ولادة الطفل.. وأيقنت أنني أخذت بيد طفل للحياة فوصلها مشوها بعد أن ظل محتبساً في الرحم لأيام، ومن في القرية يصلون ويرتلون من أجل ولادة الطفل من المرأة التي تجرأت وولدتها.. آه أشعر الآن أنني السيد الكبير، وأني أقف على ترسانة الأسلحة التي سيولد منها أطفال مشوهين يجوبون الأرض حتى بعد موتهم إذ ستنتقل أشباحهم تبحث عن ذواتها الحقيقية. ليلتها، وكنت أستعد لحفل عرسى وتتويج نفسي سيدة البيت الزوجي في حين ولدت طفلاً معتوهاً، ولم أحتمل فعلتي.. هرولت إلى الدير وظللت أقرع بابه تحت مزاريب المطر حتى أطلت راهبة وفتحت البوابة بوجهها الصارم وهي تستيقظ من نومها مستفسرة..؟! وقلت: خاطئة

تطلب الغفران.. وفي سرها هتفت: أفني هذا الليل البهيم..؟ وأنا أجبت:
الخطيئة لا تعرف وقتاً.. وفي سرها تمت بأشياء كثيرة.. أدخلتني الى
الدير وانخرطت به بينما أفقدتني قريتي.. وادعوا أنه قد أصابني لوثة
من الجنون.. وانقرط العرس..، منذ ذلك اليوم نذرت نفسي لخدمة
الرب والأطفال القادمين الى الحياة..، وما أن سمعت عن السفينة
الحاملة الحليب لأطفال الحرب المحاصرين حتى خلعت ذاتي والتحقت
بها.. علّ خلاصاً يحلّ في حياتي أو يكفّ شبح الطفل المعتوه عن
ملاحقتي... وحتى في الليل عندما كنت آوي الى فراشي وأستمع
لصوت مزاريب المطر في الطرقات كنت أوجس طرقاتاً على البوابة فأهبط
درج الدير ولا أسمع سوى عويلاً مرأً كعواء الذئب.. كان صراخ المعتوه..
وحين أفتح الباب لا أجد سوى العتمة وزهرة جلنار ملقاة أمامي تحرق
وجهي.

في اليوم الثاني، انفصلت السفينة عن العالم وعن سواحله الملوثة
بمفرزات الحضارة.. وبدأت تبث رسائلها في كل اتجاه.. «سفينة السلام
تحمل زاداً وخبزاً للأطفال.. لا شيء سوى السلام..» وكتب الربان على
صفحة الماء شارات السلام بدخان وزبد...

ثمة نورس تائه حلّق فوق السفينة، رمقنا بعين قلقة ثم رحل،... حين
كنا في ميناء الجزائر سمعنا صوت انسحاق الأطفال تحت حجارة
الاستعمار، وصوت الجوع ورائحة دماء علقّت بالسفينة، ومعها نبضت
أول قطرة من دماء هاييل المهذورة على الأرض كانت تطاردنا. منذ أبحرت
السفينة وأنا ألح بقعة الدماء تطفو على وجه الماء وكأنها بحر الخطايا،
وظلت رائحة الموت الفرعونية تتسامى بأطياب عرائس النيل تلك الأصوات
الفاجعة ما زالت في الأفق عالقة بالزمن تبعث نشيجاً يتضافر مع صوت
الأطفال الموتى في مدرسة «بحر البقر»..!! تلك الضحايا قُدمت للإلهة ما
طالبت يوماً بفداء الإنسان بالدم البشري.. هذا الدم الذي يظل في نواح

غامضاً حتى يصل مجاعة السودان وكل البطون الصغيرة الشاحبة والمنتفخة
جوعاً...

وأطلق الريان صافرته فتبددت مثل نواح في الأفق بينما ظهر البحار
الغامض أكثر قلقاً وهو يستمع لأخبار العالم وتصعيد حملات التهديد
المطروحة على أرض مدينة السلام.. ثم دخل في خشوع وصلاة وهو
يحدثنا عن المهزلة البشرية.. هل يعقل أن أقدم بقعة أرض، وأول مكان
بدأت فيه الحضارة يكون محطاً للعة والدمار؟ أيعقل أن يصير المهدي مقبرة؟
.. وانتفضت مثل حمامة مذبوحة بثيابي السوداء... كيف تكون الأرض
مهداً ومقبرة؟ وأين هو مهد الانسان عبر كل هذه المذابح..؟ لعل حمورابي
ينتحب الآن في رسمه وقد انكسر الميزان وباتت الشرائع أوراق صحف
نمسخ بها زجاج حياتنا المغبش حيث الحقيقة تكمن خلف الزجاج،
وخلف الأفق الذي لا ندرك.. بينما أونكيديو تلبسه امرأة الشهوة..
وبريق الذهب فيغزو المدينة فاتحاً.. ثمة من يتحدث عن اقتراب العام الجديد،
ويشير بميلاد جديد.. وعام لا يرى الحقيقة مزودجة ولا ينظر لبعض من
حقوق البشر ويفض عن البعض الآخر.. أو يكرر المشهد الواحد لآلاف
المرات.

بدأنا نحضر لشجرة الميلاد... كان على السفينة بعض الحطب وشجرة
حملها البحار معه.. ظهرت بيضاء من غير سوء... فكرنا أن نعلق عليها
الهدايا.. لكننا لم نجد شيئاً نعلقه عليها.. انتصبت الشجرة، كانت خضراء
أعصانها تقطر راتنجاً.. لم نحمل معنا شيئاً.. فكرنا أن نجعلها شجرة
كونية.. تساءلنا.. لماذا لا يعلق كل منا خطاياهم وقربها أمنيته-؟ علق كل من
في السفينة شيئاً، أما أنا فلم أجد سوى قلب الصبي الممتوه، وسمعت عواءه
يتصافر مع صفير السفينة فانخلع قلبي.. الآن لا بد أنهم جميعاً بانتظارنا..
وكل طفل قد أتى بقصعته ينتظر سكة الحليب تنهي مسغبة يومه...،
والكهنة المحتبسون في أبراجهم يرقبون حركة النجوم ويرتلون الصلوات
لنخيل دجلة الذي يمد ضفائره بانتظار السلام، حتى يثمر رطبه الجنيه...

ليلة الميلاد انفصلنا عن الأرض.. الشواطئ بعيدة ونحن وسط لجة الماء.. لا شيء سوى الماء وزرقة البحر...

القبطان يعلن عن قطع اتصالاته مع الكون.. ثمة قلق يغزو الركاب، إشارات اللاسلكي لم تعد تصل ولا إشارة النار والدخان والسفينة لعلها ارتحلت بعيداً عن العالم، لعل الحرب قد اندلعت ولم يبق من العالم شيء، لعل نار الحرب قد توهجت ثم انطفأت في سراب أبدي...

الليل لا ينتهي والرقص الذي كان من المقروض له أن يبدأ ألغى أمام رعب القبطان والنورس الغريب الذي طاردنا مثل لعنة شؤم ها هو يحلق.. يقف في أعلى الشجرة.. ها هو القبطان يتقدم من النورس ويزجره صوب الشرق عله يعود اليه بخبر.. وظل الليل يحيط بنا دون اتصال بالعالم، أذكر أن آخر مكان دخلناه هو بحر العرب، وكان ثمة ضوء يلوح في الأفق يشير بمنارة.. لكن الطائر عاد بعد زمن لست أدرك حقيقته جاثماً وبعد أن مسحنا عنه جوعه أطلقناه شمالاً فعاد مضطرباً مخبولاً.. وبعد صحوة أطلقناه جنوباً فعاد جاثماً متعباً.. وصوب الغرب عاد مذبحاً يقطر دماءً قانية...

السفينة ما زالت تتهدى تمنع في التيه.. إلى أين..؟

لا أحد يجيب..

والحليب..؟

وأرض سامراء... وفي سري أهتف: ماذا لو فك الحصار.. ووصل الحليب للأطفال...؟ سيكون هنالك أطفال آخرون يحاصرون ويزج بهم في أتون معارك من صنع الشيطان...

ما بال خطيتي لم تغتفر..؟ ما بال قربان قايل لم يرفع حتى الآن..؟ وجراح ابن الانسان أما أن لها أن تجف..؟

ما بال الأرض لا تشبع من دماننا..؟

أبحث عن البحار فلا أجده.. وأدور هنا وهناك... السفينة تائهة.. البحار تائه.. الاتصال منقطع من الأرض وقد يكون مع السماء...

بعدهما وقفنا مثل نوارس خاشعة نصلي في ليل بحري مظلم.. من بين الآفاق يبرز وجه البحار.. أتطلع إليه بود.. فتطفو صلاتي على وجه الماء...
الآن إن غرقت السفينة، فلن يكون هناك شيء، ورسائلنا التي نبثها عبر اللجاجة الزرقاء سلام.. حب... سلام.. وبعد ذلك لا شيء.

لأول مرة تبدو معاني الكون في أعماقي أكثر ظهوراً.. فأكاد أمحص ذاتي بأكملها يخيل لي أن السلام يبدأ من هنا... من هذه السفينة، وقبل أن ترسو من جديد على شاطئ مدمى.. اقترب من الرجل البحار «إن لم يكن في أعماق الانسان سلام فلا سلام في الكون وبينني وبين أخي...»

أشعر به يغمرنني حياً، سنوات القحط التي عشتها في حياتي لم تصنع عالماً جديداً، ولم تمح عنه الطفل السفينة ضائعة فلتكن هذه سفينتنا وأرضنا والطفل المرتقب الذي سيولد ليلة الميلاد لم يولد بعد ولن يولد إلا من صفاء أنفسنا.

أقترب من الرجل.. أخلع ثياب الرهينة.. أعانقه.. أكتشف أن الأديان أبسط من كل ما نقتل عليه ومن أجله.. وأن الحب أبسط وأقوى مما نختلقه من ترهات ومعلقات مزيفة أتحد بالرجل أتحدى كل الجزر والشواطئ وأبدأ وإياه بصنع طفل قادم.. ومدينة استقرار قادمة...

يا إلهي.. الان فقط الطفل المعتوه يصمت.. والنورس يغفو.. ونوح يرقد في سبات بحري.. والطوفان يتوقف.. سيصل الحليب للأطفال.. حين ن فك الحصار عن أشياء كثيرة.. عن عقولنا المغلقة.. عن عدوانيتنا المتوحشة.. حين يصير القلب رفة ماء.. وأي بيت بقعة سلام في الأرض.. والعالم رجل وامرأة وطفل.. والكون لؤلؤة ترقص على نغم الناي... وهذا كل شيء..

ما زالت السفينة ترسل إشارات إلى شتات الكون...

القط الأسود

اقسم لكم أن قصتي حقيقية ولا علاقة لها بادجار بو وإرهاصاته.. كان ذلك في آخر يوم رمضاني في لحظاته الأخيرة المحتضرة حين تصفر الشمس ويمتد طيف صامت على وجه المدينة، وتتسارع السيارات بركابها للانضمام الى الموائل الممتدة، حيث تجف الحلوq وتجار الجوارح بمختلجات النفس لحظتها كنت أقود سيارتي باتجاه البيت للانضمام الى مائدة الافطار التي تأخرت عنها بعدما نسيت ذاتي في المقبرة الوداعة.. إذ ما أن انتصف النهار وصار قرص الشمس في كبد السماء، حتى اصطحبت صغيري وذهبنا الى المقبرة لنزور قبر أمي الذي لم يجف بعد. حملت لها زيتونة بعدما ترددت في أخذ شجرة بلوط تخلد ذكرها، لكنني تذكرت نور المشكاة المضاءة بزيت شرقي.

تركت من خلفي المدينة بصخبها وضجيجها وسياراتها المتسارعة وأصوات باعتهأ، وخطوات المارة المبعثرة هنا وهناك، وانفلت من كل ذلك إلى السكون الكوني حيث مستقر الأجساد الأبدي، وحين وصلتها لفني سكون عميق وكأنني اخترق حجب الغيب إلى حيث بؤرة الصمت الحقيقية، أوقفت سيارتي وحملت شتلة الزيتون وسرت بين شواهد القبور يسبقني إليها الطير والفراشات الحلقة وما بين أشعة الشمس الصفراء الباهتة بحثت عن قبر أمي.. حيث تجسدت لي بكفنها الأبيض ويديها المضمومتان على صدرها في خشوع وعطش الحطب الذي استوطن حلقها قبل مغادرة الروح لها.

اقترب الحفار يحمل فأسه ثم توقف عند رأسها.. أو مات اليه فبدأ يحفر

وصوت الفأس يبعث رنيناً وكأنه يمزق حجب الغيب بحثاً عن قرار ظل، يحفر وأنا أغوص في ثنات هلامي، وأنا أفكر كيف أودعت رحم الأرض جسدي أُمِّي.. ماذا لو أطل وجهها من بين حفنات التراب.. هل حقاً سيودعني مستقبلاً طفلي مثل هذا القبر الموحش.. تنبتهت إلى الحفرة التي صارت.. أمسكت الشتلة وتلوت عليها بعض الآيات القرآنية ثم غرستها مباشرة فوق رأسها، وبدأت أُرِدِم الحفرة التي ساعدني الحفار على ردمها.. وفي لحظة مباغتة مست يده يدي فأوجست منه خيفة، طلبت من طفلي أن يفعل مثلي فامتدت يده تثر التراب على قبر جدته، بينما ذهب الحفار يحضر الماء ليسقي الشجرة، وحين عاد وسكب الماء ظهر ثقب كبير في الأرض تسربت منه المياه إلى القبر محدثة صوت حوار ارعيني وتذكرت العطش الذي استولى عليها وقت احتضارها إذ أمسكت قطعة من القطن بللتها في الماء وعصرتها في فمها فمدت لسانها ترتشف آخر قطرة عالقة بالقطنة وكأنها ترتشف آخر قطرات الحياة.

اتبته الحفار للثقب وراح يردم الحفرة وأنا خرجت من المقبرة خائفة والشمس تودعني كآخر غروب لها على وجه الأرض وصوت ارتشاف الماء وحوار الحفرة يصمان اذني.. تساءلت أين ذهبت تلك الكمية من الماء أتراها ارتشفتها أُمِّي.. أم أن الماء لطخ كنفها بالطين فزاد من زهداها في الحياة إذ كانت أُمِّي في رقدتها الأخيرة تشبه ناسكة حيث لحظة الصدق الأزلية التي تتساقط فيها الأقنعة وتسلخ الوجوه يوماً لأول مرة أواجه نفسي وأدرك طيشي وعيبي في الحياة... تمنيت لو كنت مكانها وأشعر بكل الطمأنينة التي تطل من وجهها وقد زرعت دربها بالطهر والصلوات العظام وحين اختليت للحظات بجثمانها أجهشت بالبكاء، ضارعة لالهي أن أتبع دربها الأبيض وأهجر دنياي الصاخبة.

انتهت على صوت صغيري يحذرني من دهس قط يقف على قارعة الطريق، وبلحظة كنت أنسل من موج الشرود وأحاول تجنب دهس القط

الذي بدا لي أسود اللون وكأنه قدر يتربص بي.. حرفت السيارة باتجاه اليمين قفز باتجاهها.. ضغطت على الفرامل.. لكنني رفعت رجلي عندما أدركت أنني موشكة على الهلاك لا محالة.. حرفت صوب اليسار قفز في وجهي ثم ارتطم بالزجاج الأمامي وانزلت تحت عجلات السيارة وأنا زعقت معها ولم تتوقف إلا بعد أمتار...

كنت أرتجف وأبكي وأنا أردد قتله.. قتله.. فكرت أن أرجع وأنفقه لكنني كنت خائفة وأنا أردد قتلت نفساً.. لا لا إنه حيوان من أين ظهر لي ولماذا تربص بي لماذا قبل الأذان بلحظات وأنا التي حرصت أن يمضي الشهر بلا خطايا.. هل أرجع له... ماذا لو كانت أمعاؤه ملتصقة بالإسفلت.. ماذا لو كان معجوناً.. بدمائه.. تذكرت قطعاً آخر كدت أدهسه في شهر فضيل أيضاً وقد كنت عائدة من لقاء حبيب الي بيتي عندما قفز أمامي ثم فر من أمام السيارة بأسلوب بهلواني رشيق وحين وصلت البيت صدمني منظر أمي وهي تتلو في قرآنها وقد حدجتني بنظرات مؤنبة وكأنها تدرك أمري وأنا خجلت من نفسي.

ظل موضوع القط الذي دهسته يؤرقني لا سيما أن طفلي راح يذكرني به.. وعندما دخل البيت أسرع يقود سيارته الصغيرة وقد ألقى على الأرض قطعاً أسود اللون مصنوع من الفرو قام بدهسه ثم تحدث الي دماه (كعادته) عن الحادث وأن القط بقي وحيداً في الشارع جريحاً مما دفع بي الي العودة الي مكان الحادث بعد الافطار ولدهشتي لم أعثر له على أثر، كانت الأرض نظيفة.. بحثت في الحاوية فلم أجده وعدت إلى بيتي مضطربة إذ لا يعقل أنه نجا من تلك الضربة القاتلة.

حل العيد حزيناً لو لا شجرة اللوز البيضاء المزهرة والتي اقتربت منها لاقطف بعض الأغصان وإذا بي المح بين أغصانها قطعاً أسود اللون اختفى في قمتها وأنا هرولت خائفة.

مضى شهران على الحادثة، كدت أنسى الأمر عندما كنت أقود سيارتي يوماً شرق المدينة حيث الشوارع الضيقة ورائحة محلات العطاراة التي تكثر هناك. فجأة ظهر القط قفز أمامي.. تبعته صممت على اللحاق به.. اتخذ دروباً ملتوية وكأنه يعرفها وأنا اتبعه ثم فجأة وجدت ذاتي أمام المقبرة.. كيف وصلها لا أدري و أي حمى تلبستني حتى لحقت به.. وعند الجدار الاسمتي أوقفت سيارتي وترجلت.. كنت مثل مخدرة لا أعلم اتجاهي.. تجاوز قبور الأطفال وقفز عنها ثم اتجه الى المسكبة التي تضم قبر أمي.. هناك توقفت خائفة، كانت الشجرة قد كبرت بشكل خرافي.. حدقت بها رأيتها تشبه شكلاً بشرياً.. تشبه وجه الحبيب السابق الذي لم أراه منذ زمن.. فجأة صارت تشبه القط الذي قفز من خلالها الى فوهة القبر التي تسرب منها الماء كاد يغمي علي.. تأرجحت.. تمسكت بشاهدة القبر.. لاح لي طيف أمي مثل غيمة تحيط بي ومن داخل القبر سمعت همهمة.. وأصوات تشبه انكسار أيام حياتي في خرق بالية.

أيار/١٩٩٥م



مسكن الصلصال

تلك الرائحة ما زالت تنبعث مثل فوهة بركان، تطاردني، تنبعث من ريش الوسادة من قبلات زوجي الحميمة... من رائحة جسده الأشبه ما تكون برائحة الصلصال... ومعها اشعر أن كياني وروحي هي جذوة تتوقد ثم تصير إلى رماد... قطرات ماء تنز أسمع صوتها... تتغلغل إلى طيات الطين الممتد أمام بيتنا في حقل الزيتون والتين المعرى وأوراق الشجر الخريفية، التي غطت مساحات شاسعة أمام البيت حتى بات مثل كوخ قديم مهجور وسط الغاب.. وحين تتعشقني الرائحة أشعر أن ذاتي تتحلل وأن جلدي يصير رقيقاً تظهر منه أحشائي وقلبي.. وعظامي.. فأرى بوضوح سجن الصلصال الذي تسكنه روحي، وتهتز شجرة التين العملاقة في أعماقي مُعريّة أوراقها فأخذ بالنحيب والبكاء...

منذ زمن لم يقترب مني زوجي.. ولم أعد صهوة الفرس التي يمتطيها عابراً بها جبال الله الكونية، المصنوعة من جليد.. موشكاً التعلق بعنان السماء فيصطدم بجدار من الصلصال ليتناثر هشاشة على سرير الأبنوس فأغرق في البكاء.

...وصوت الريح في الخارج تحيط كمحاق بالبيت المنسي الذي هو بيتنا، والذي هو في حقل واسع بأطراف المدينة حيث السكنية وحيث مقام الجد الأعظم الجاثم على تلة، وكنا نلمح النار تتقد منها، ليلاً وفي النهار مزق ورايات كأنها قمصان طفل حديث الولادة تنشرها امرأة شبقة.

كان زوجي يعمل نحّاتاً.. وكنت أراه حين يلمح بعين الفنان بقعة طين صلصالية يعانقها، ينبطح أرضاً ثم يبدأ يشتمها ويقبلها ويدخل في صلاة

حارة وبكاء... وبعد أيام أشاهده وقد صنع من الصلصال كائناً بشرياً.. كانت مخلوقاته غريبة لا تشبه كثيراً المخلوقات التي نعرفها.. فقد كان في وجوها شيخوخة عميقة، وسماحة وجه طفولي.. للحظات كنت أقرأ في الوجوه أشخاصاً عرفتهم في بطون الكتب... سقراط.. توت عنخ آمون وارفبوس..، وكانت تجتمع لديه مدينة كاملة من الشخصوس البشرية، وكان يبقى عليها بلونها الصلصالي.. حتى صار بيتنا أشبه ما يكون بمتحف أثري..

ما أن كنت أندس في فراشي حتى أدخل في نوم عميق، وحين كانت تمر الرياح محرّكة شجرة الزيزفون الملاصقة للنافذة، فتبذر عويلاً في الأفق وتروح فأستيقظ من نومي مرتعدة وأبحث عن زوجي فلا أجده.. وأدرك أنه يياثر تماثيله.. من يدري؟ لعله يعلمها.. لعله يقرأ عليها شعر ادجار بو لعله يتلو مزامير قصيدة الغراب التي تلاها علي حين دخلت بيته لأول مرة، وكان ما حولنا عبارة عن مرج أخضر، تتلاحق فيه رؤوس السنابل والعشب الندي، حين يثير عباها نسيم الأصيل، فتتهز متموجة مثل ترنيمة وترية رائعة.. يومها عصفت الريح وكأنها حفيف ثوب ملك الموت جاء يأخذ منه زوجته.. وحين نظرتُ في عينيه كان بهما عمق بحار رهيب.. ألقىت رأسي على صدره فانبعثت رائحة الصلصال الطيبة من جسده، لكنه أبعدني وراح يقرأ قصيدة الغراب.. وكأنها تعويذة تُقرأ على سرير طفل صغير.. لم تمض فترة طويلة حتى قرر أن يصنع لي تماثلاً من الصلصال، خلعت ثوبي واستلقيت هادئة.. اطفئ النور.. ظهر وجهه مثل إله.. فتح النافذة، دخلت شجرة الزيزفون كلها الي البيت، قال إنها شجرة كونية.. تطلعت الي الخارج كانت ليلة قمرية وقد رسم الضباب حول القمر هالة رائعة... أما الغيوم فبدت مثل جبال جليدية ترسو في أعماق الأفق وتتصافر مع أسوار الكون.. أحسست بذاتي ترتحل إلى عالم آخر.. أما هو فقد بدأ يغرق أطرافي وبطني وصدري بحفنات من الصلصال.. البارد الذي خدّرنني..

ولما انتهى من صنع التمثال نهضت وهرعت الى فراشي، دفنت جسدي في دثار صوفي وبدأت أنتحب...

ظل صامتاً لكنني في اليوم التالي وبعد ما سهر طوال الليل رأيت جسدي منتصباً بين تلك الأجساد.. وفي الليل حين كنت أستيقظ وحيدة أرقب وجه زوجي كان يشبه وجه نبي وكثيراً ما تمنيت أن أصنع له تمثالاً.. كانت أمه تقول أنها ولدته على جلد ماعز أسود وعلى وجهه قناع، بينما صوت الناي الحزين يرتفع من غرفة مجاورة يغني سمفونية الأزل التي لا تفنى....

بعد صنع التمثال فترت العلاقة بيننا... لم يعد يحدثني.. لم يعد يقترب مني وشعرت بألم مقيت.. لعله مثل بجمالين يعشق تماثيله، لكن لماذا يترك النسخة الأصلية ويتبع الشبه-؟

واختفى التمثال.. ومعه تماثيل أخرى، ادعى أنه يأخذها الى صالة العرض التي يمتلكها... وبدأت أشعر بأعماقي تتمزق بغموض لا أدرك حقيقته.. وكنت أرقب بألم أوراق الشجر وهي تتساقط عن الأغصان العارية...

في إحدى الليالي داهمني القلق.. كان زوجي قد قرر أن يقضي الليلة خارج البيت.. يومها اندفعت أغصان الزيزفون بوحشية تصطك بالزجاج، فيشتت وقعها النوم الصقيعي من أجفاني الباردة، فكرت أن أخرج لابعادها عن النافذة، عندما سيأتي زوجي سأطلب منه أن يقلم أغصانها فتكف عن التحيب الذي يمزق قلبي. تذررت بمعطفي وخرجت الى الحقل.. كان صامتاً.. تذكرت الليالي القمرية التي كنا نخرج فيها للحقل حيث كان يجلس على الحجارة يداعب التراب.. ويقلب أغصان الدالية.. سرت ببطء ثم اقتربت من الزيزفونة التي لم أقرب منها منذ زواجي إذ كان يتوجب عليّ أن أقفز على سلسلة حجارة متراكمة حتى أصلها.. وهذا ما فعلت..

وحين وصلتها رأيت أن ساقها كان يغطي نافذة ضيقة وكأنها باب قبو.. يتبعثر منه ضوء سباتي أصفر.. وقفت أهدق.. وفجأة لاحت لي التماثيل... أزحت الباب وإذا بي أمام درجات ثلاث ثم دهليز ضيق.. وغرقت في رائحة الصندل والبحور التي كان يوقدها... وقفت مندهشة وكأنني قد دلفت الي معبد قديم، كانت بعض التماثيل مهشمة وبعضها الآخر غارت قدماء في الأرض الرخوة، وثمة تماثيل يدها ضارعتان للسماء.. لم أميز المشهد إذ كان يشبه مدينة من البشر، اجتاحتها بركان فيزوف، فظلت في وقتها الأبدية ضارعة في أعماق السكينة، في المنتصف تماماً كان هناك تابوت أبوسوي وكأنه مثبت في الأرض.. اقتربت منه بفضول غريب وكأنني أبحث عن شيء ما فقدته منذ زمن بعيد،... أزحت الغطاء فانبعثت من التابوت رائحة أعرفها تلك التي كانت تلاحقني دائماً، نزعت الغطاء فلم أصدق ما أرى... إنه وجهي... كان تماثلي الصلصالي مسجى هنا لكن الطحالب العفنة قد بدأت تأكل الوجه.. والأصابع وامتدت إلى الساق وعرى الصلصال.. لم أصدق لعلي في حلم.. صرخت.. هل يعقل..؟! أهذه أنا هكذا إذن سأكون بعد الموت.. تلتهمني العفونة في باطن الأرض.. كانت الرطوبة تنساح على الجدران وتلتهم الصلصال.. مددت أصابعي المرتجفة لمست الساق.. يا لرعبي.. واكتشفت أن داخل الصلصال عظمة من عظامي ثم اكتشفت سُلامية.. فكرت في الهرب.. صفعني منظر نبتة عفنة خضراء.. تشبه غرسات العدس التي تزرع بكثافة في القطن قبل عيد الميلاد... تذكرت الشجرة التي صنعناها احتفاء بالعيد.. لكننا لم نكملها ولا أذكر ما الذي حدث...

الآن حاول ربط كل الأمور التي حدثت.. بعد أن وضع آخر قطعة من الطين على وجهي.. حين كان يصنع التماثيل... هل حقاً أفقت..؟ وعويل الشجرة..؟ وأسوار الكون الجليدية.. التي شاهدها؟ والتراتيل التي سمعتها؟ هل حقاً تدرت في سريري بدثار صوفي؟ أم أنني كنت ميتة فحملني إلى

هنا..؟! فأبصرت ذاتي عارية..؟! هل كان هذا سريري؟ لماذا لم يياشرنني منذ زمن.. وهو الذي كان يقول أن النشوة هي سَلْم ماسي ينقل الانسان من عالم الفناء الى عالم الخلود.. وحين يصل آخر درجات السلم يوشك أن يطل إلى جوهر الكون الرحيب، فيرتد منزلقاً إلى سجن الصلصال.. لا أدري.. إنها الرياح تعبث بنوافذ القبو الصدئة وهذا كل ما تبقى من رجوع الألمان العابرة.. أحاول النهوض لا أستطيع، أشعر بثقل كبير.. أختنق... هنالك زوابع عاتية في الخارج.. وضوء القاعة يتأرجح متخافتاً، أحاول الصراخ... الاستغاثة.. أشعر أن جسدي يتحلل.. لعلي أحلم.. أو أنني في كابوس، لكن منذ زمن لا أشعر بحقيقة الأشياء كاملة.. لعلها الفترة التي تكف فيها الروح عن التواصل مع شعلة الحياة.. لقد حان الرحيل.. فلتهدأي أيتها الروح... القلقة.. على دفة النافذة... ولتهجعي أيتها الشعلة الوهمية...

ها قد جاء زوجي... لا... بل شبح غراب أسود حط على نافذة القبو إنه يردد

نيفه مور*

نيفه مور

.....

الآن إن عاد زوجي ولم يجدني فسوف.. لكن ضوء المصباح انطفأ وغطاء التابوت أطبق فوقي.. وغرقت في الظلام...

* نيفه مور اختصار لكلمتي: Never more

صدر للمؤلفة

- ١- شقائق النعمان ١٩٨٩ مجموعة قصصية.
- ٢- اكليل الجبل ١٩٩٠ قصة طويلة.
- ٣- ضجعة النورس ١٩٩١ مجموعة قصصية.
- ٤- عدد من القصص القصيرة والمقالات الأدبية وقصص الأطفال نشرت في عدد من المجلات المختلفة.



الفهرس

٣	الإهداء
٥	العابث بالدمى
٢١	جروة
٢٦	العجوز
٣٣	الانتظار
٣٧	عامل الخانوتي
٤١	مدينة الدمى
٤٩	وجوه بين الموت والحياة
٥٥	أوراق الاوكالبتوس
٦٢	الموت الأصفر
٦٧	الجنرال
٧٢	سفينة السلام
٧٨	القط الأسود
٨٢	مسكن الصلصال
٨٧	صدر للمؤلفة
٨٨	الفهرس